NEW
NOUVEAU
جديد

روايات سوفنير SOUVENIR

5

قلوب جياشة

راميا فرناندو

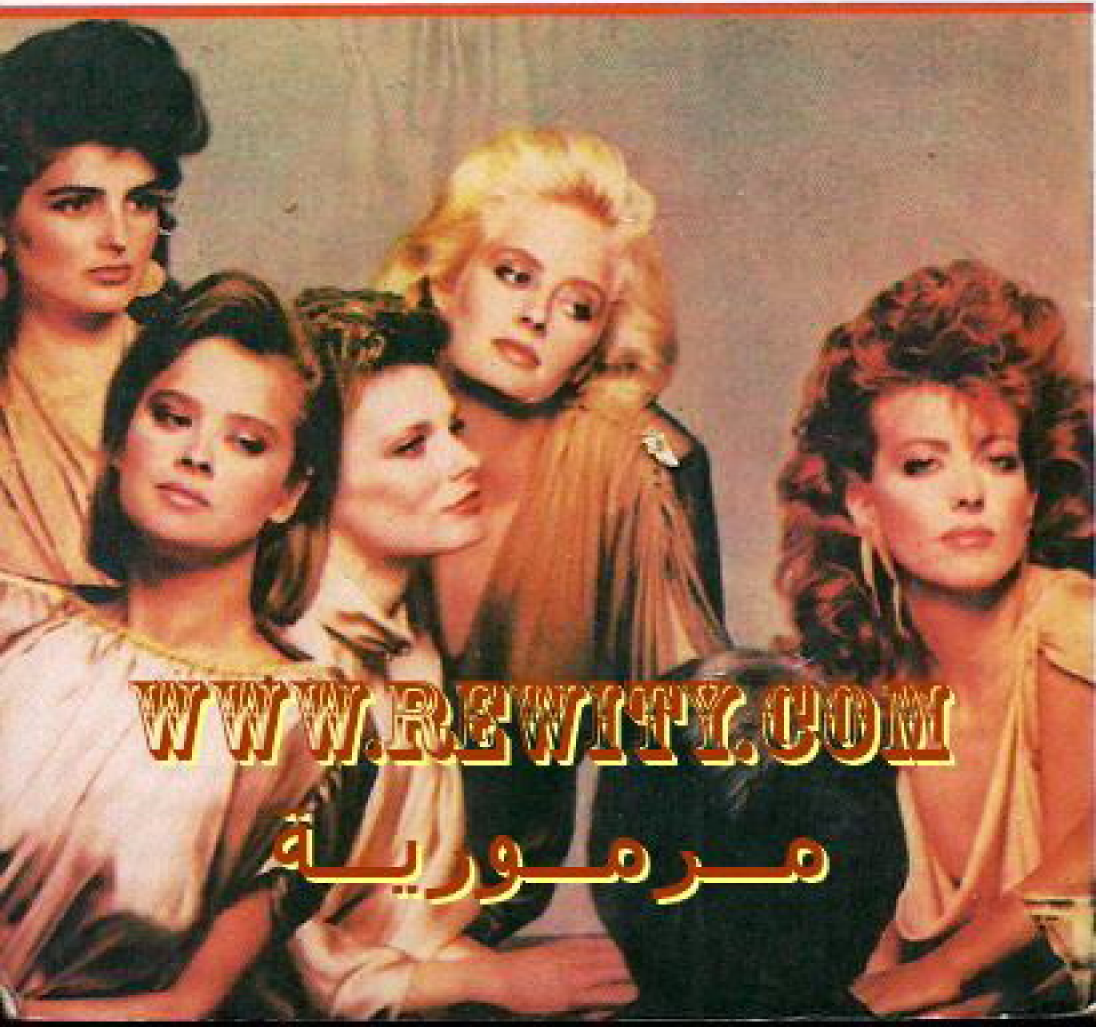

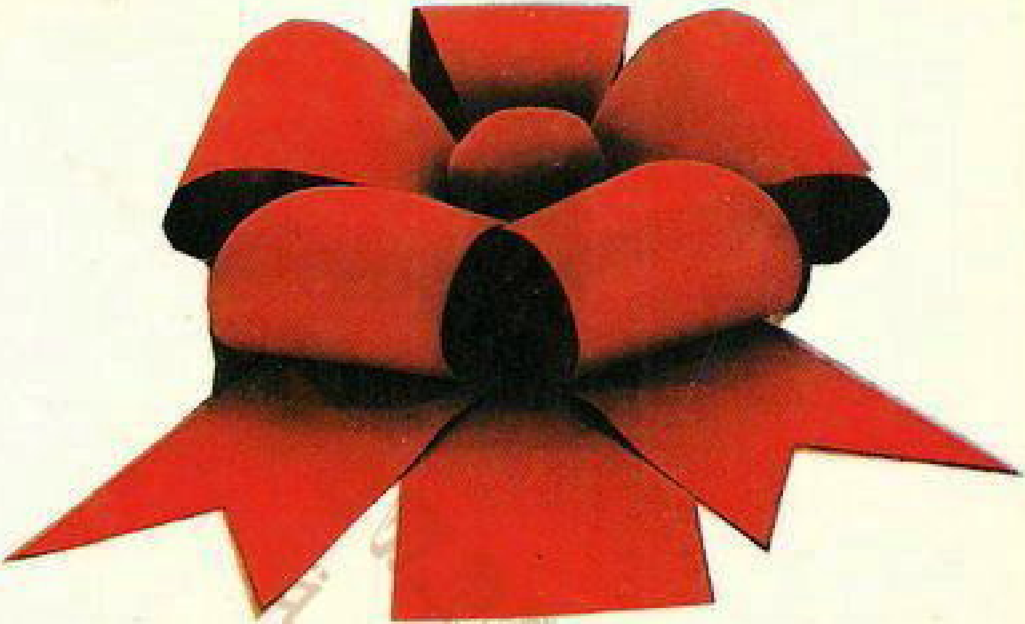

سلسلة روايات سوفنير الرومانسية

عاشت سمعا في كنف والديها في مزرعة بقرية صغيرة كانت سمعا منذ صغرها [illegible] عاطفة جياشة، [illegible] المزارع [illegible] والديها [illegible] الخروج [illegible] من تحت سيطرة والديها، [illegible]

[illegible] بعد عودة المزرعة.

وشاء القدر في طريقها عددا من الشباب، [illegible] عاطفة نحو الجنس الآخر، وعادت للعيش في القرية مع والديها [illegible] بالوحدة [illegible] المرض، وهكذا عادت [illegible] بالطبيب [illegible] كانت [illegible] والدها [illegible] بالمزرعة.

مقتبسة عن أشهر الروايات الايطالية والأوروبية وقد تم تعريب شخصياتها وأحداثها لتتماشى مع آداب السلوك والحشمة في بلاد المشرق العربي. روعي في سرد أحداثها، إبراز العواطف النبيلة والملتزمة لكي تدخل البيوت من أبوابها وتكون بمثابة المرشد الصالح للشباب والفتيات، بحيث أنها لا تشكل حرجاً أمام الآباء والأمهات من خلال قراءتها.

روعي في إعدادها الاعتماد على مجموعة من القصصيين والتربويين المتخصصين في العالم العربي. وتم التركيز على إبراز الهدف والعبرة المفيدة منها، من خلال واقعية الأحداث المشوقة، والرجوع إلى الأصالة والأخلاق الحميدة والتربية الصالحة

شخصيات وأحداث

لقد قيل: «تقدرون وتضحك الأقدار»، وبعبارة أخرى، «الإنسان مسيّر لا مخيّر». لعب القدر دوراً بارزاً في حياة سعاد، بطلة هذه القصة، التي نشأت في كنف والديها، بمزرعة في قرية صغيرة.

شعرت سعاد بأول عاطفة لها وهي في الرابعة من عمرها، نحو ابن الجيران الذي كان يكبرها بسنتين، لكن هذه العاطفة سرعان ما تلاشت، بانتقال عائلة ابن الجيران إلى منطقة أخرى.

وعندما كانت سعاد في المدرسة الإبتدائية، كان هناك دائماً طفل ينتظرها ليحمل كتبها إلى البيت، ويساعدها في فروضها المدرسية. ولما حان وقت مغادرة مدرسة القرية الصغيرة، والذهاب إلى مدرسة أخرى في أقرب مدينة، لم يستطع والداها تحمل التكاليف. لكنهما تمكنا من تأمين إقامة ابنتهما مع عائلة صديقة خلال الأسبوع، على أن يحضراها إلى المزرعة في نهاية الأسبوع. كانت والدتها تشترط عليها قائلة: «لا سينما خلال الأسبوع، ولا أصدقاء أولاد».

وخلال دراستها الثانوية، مالت عاطفتها نحو سليم، كابتن فريق كرة القدم، لكنها رفضت الخروج معه بناء على نصيحة والدتها، وقد بكت كثيراً بسبب هذا التعنت.

وعندما بلغت الخامسة عشرة وانتهت أيام المدرسة، حزمت كتبها بفرح واستعدت لعهد المرأة. الآن يمكنها أن تعيش حياتها. لكنها لخيبة أملها، ما زالت والدتها تعتبرها صغيرة جداً على الخروج مع الأصدقاء الشباب. كانت لا تخرج إلا برفقة خالتها أو والديها. السؤال الذي كانت تتشوق لسماعه هو: «هل يمكنني أن أراك الليلة، يا سعاد؟» لكنها كانت لا تزال مضطرة للإجابة بعبارة: «آسفة، فالماما ما زالت تعتبرني صغيرة على الخروج مع الشباب». وعندما كانت تسأل بثورة: «متى يمكنني الخروج؟» كانت والدتها تجيب: «عندما تبلغين السابعة عشرة، سآخذ هذا الموضوع بعين الإعتبار». عندها شعرت سعاد بأن والدتها كانت قاسية.

وفي إحدى حفلات الرقص المحلية، التي خرجت فيها سعاد مع والديها، إلتقت الشاب الأسمر «وسيم». رقص معها عدة مرات خلال الأمسية، وكانت والدتها خلال الأمسية تنظر إليها عابسة بقلق، لكنها تجاهلت ملاحظتها. بعد الحفلة والعودة إلى البيت، عاتبتها والدتها بقسوة. وعندما اتصل الشاب بها هاتفياً ليدعوها للذهاب معه إلى السينما، إضطرت أن تقول له: «آسفة».

لكن والدتها لم تستطع أن تبقيها تحت سيطرتها إلى الأبد، فعندما بلغت السادسة عشرة، ذهبت لتعمل في مكتب البريد في مدينة مجاورة على بعد عدة أميال من بيتها. ونظراً لبعد المسافة، فقد استأجرت لتقيم مع السيد والسيدة فواز، اللذين يملكان شققاً مفروشة للإيجار.

أحبت سعاد حياة مجتمع الشقق بعد عزلة المزرعة. كانوا يرقصون كل ليلة جمعة خلال أشهر الشتاء. وفي الصيف كان هناك التنس والسباحة في النهر.

إلتقت هنا بالشاب رشيد وشعرت بعاطفة نحوه، لكن رشيداً كان خطيباً لضحى، التي سرعان ما تزوجها، واضطرت سعاد أن تنساه إلى الأبد. قررت سعاد أن لا تعشق ثانية.

بعد ذلك جاء جمال، كان جمال شاباً طويلاً، جذاباً، أسمر السحنة. مع مرور الأيام، نسيت أصدقاءها الآخرين وأخذت تخرج معه بصورة حصرية. كان شديد الغيرة، ويثور عند أقل ابتسامة توجهها لرجل آخر. ومن شدة غيرته حال بينها وبين تمتعها بحفلات الرقص، الذي كان هوايتها المفضلة. كانت لا تذهب بدونه، لكنه من شدة غيرته حرمها من هذه الهواية ثلاث مرات. عندئذ قررت الذهاب وحدها إلى حفلة العازبين والعازبات التي كانت تعتبر حدث الموسم.

هناك التقت بالمهندس الأسمر، الجميل، إبراهيم الذي جاء من بلد بعيد، ليشرف على بناء جسر جديد على النهر. دعاها إبراهيم للرقص، فأعجبت بمهارته في الرقص، وشعرت بعاطفة قوية تجاهه. دعاها لعدة رقصات قبل موعد العشاء. وبعد العشاء دعاها من جديد. وقبل حوالي ساعة على انتهاء موعد الحفلة، حضر جمال وشاهدها ترقص مع إبراهيم. جن جنونه، وتعارك معه، لكن إبراهيم رد له الصاع صاعين. إضطرت سعاد أن تذهب وحدها إلى البيت قبل انتهاء الحفلة.

بعد عدة أيام التقاها إبراهيم، ودعاها لتخرج معه إلى السينما. وبعد انتهاء الفيلم أوصلها إلى البيت، على أن يعود إلى المخيم الذي يقيم فيه سيراً على الأقدام.

في صبيحة اليوم التالي، عند الفجر، أيقظتها السيدة فواز لتقول لها أن جمال وابراهيم قد قتلا في حادث سيارة ووقعا في النهر وقد تم انتشال جثتيهما. راحت السيدة فواز تروي لها تفاصيل الحادث. كيف كان جمال سكراناً، والتقى ابراهيم سائراً على قدميه فتبرع بإيصاله بسيارته إلى المخيم. لكن جمال بدلاً من أن ينعطف إلى الطريق الصحيح، أكمل سيره على طريق الجسر الذي لم يكتمل، وهكذا وقعا في النهر العميق وقتلا.

بعد هذه الحادثة أغلقت سعاد قلبها، وعادت لتعيش في القرية. لكنها سرعان ما ضجرت من حياة الوحدة، فقررت

أن تتدرب على التمريض وتكرس حياتها لمساعدة المرضى والمصابين.

في المستشفى الذي كانت تتدرب فيه تعرفت إلى الطبيب فارس الذي شعر بكآبتها وحزنها، وراح يدعوها للخروج معه للسباحة في النهر في أوقات إجازاتهما. أحس فارس بعاطفة قوية تجاه سعاد التي أحست بنفس الشعور، لكنها بسبب ماضيها الأليم لم تتجاوب معه. أخيراً نجح فارس في إقناعها بالزواج منه.

عاشا معاً في سعادة وهناء أربع عشرة سنة، رزقا خلالها بابنة جميلة سمياها ليلى. لكن القدر كان يخبىء لسعاد مفاجأة لم تكن لتخطر على بالها. فذات ليلة فيما كان فارس عائداً من عمله بسيارته، إصطدمت سيارته بسيارة شاب أهوج كان سكراناً، عند منعطف خفي، فقتل الطبيب على الفور، فيما توفي الشاب فيما بعد متأثراً بجروحه.

خيم الحزن على البيت الصغير، وكرست سعاد حياتها للإهتمام بابنتها ليلى، التي كانت تشبهها قلباً وقالباً. كانت ليلى مثل والدتها، فقد شعرت بعاطفة قوية نحو سمير، الذي كان يكبرها بحوالي عشر سنوات. لكن ظروف ليلى اختلفت عن ظروف والدتها، إذ استطاعت أن تحتفظ بصداقة سمير وتكرس حياتها لمهنة التمريض التي كانت تتدرب عليها في أحد المستشفيات.

وأخيراً، كيف ستنتهي أحداث هذه الرواية؟ وكيف ستكون النتائج سلبية أم إيجابية بالنسبة للأبطال.... وهل ستجري الرياح كما تشتهي السفن؟...

هيا معاً نقرأ فصولها ووقائعها المشوقة لنستخلص العبرة من الحياة، ولنرى ماذا يخبيء القدر في صفحاته من لوعة للقلوب وحسرة للمحبين وسعادة لمن نالوا مرادهم بعد طول عذاب.

الناشر

الفصل الأول

قالت ليلى مخاطبة والدتها، «يا والدتي، أنت لا تفهمين. إنني أكن عاطفة نبيلة، جياشة نحو سمير. لا أستطيع العيش بدونه. إنه بكل بساطة لا جدوى من التحدث معك. أنتِ فقط لا تفهمين. أنتِ لا يمكنك أن تعرفي ما أعانيه».

نظرت الأم بعطف نحو ابنتها الشابة الثائرة. «لكنني أعرف، يا عزيزتي»، قالت بلطف، «ولهذا أتوسل إليك أن تنتظري».

«أنتظر! أنتظر!» إرتفع صوت الفتاة بصورة هيستيرية. «تقولين، أنتظر؛ هذا يثبت أنك لا تفهمين. كيف يمكنكِ؟ أنت امرأة عجوز، وحياتك انتهت». حملت انفعالاتها بعيداً، وأخذت تبكي، بحيث ظهر الألم واضحاً في عيني والدتها. «إن عاطفتي جياشة نحوه. إنني أحترمه، وعلى استعداد للموت من أجله».

نظرت الأم إلى الفتاة التي أمامها، إنها تشبه تماماً، تلك الفتاة عندما كانت هي في العشرين من عمرها، فبكى قلبها.

كانت هناك نفس العينين الخضراوين، ونفس الحاجبين العريضين، والجبهة العالية. في السابعة عشرة، كانت

سعاد قد قصرت شعرها كالأولاد، فيما ابنتها أسدلت شعرها الأشقر على ظهرها.

هي، أيضاً، كانت ضجرة من التقاليد، ومليئة بالثورة ضد حاجة والديها إلى الفهم، وتذكرت بوضوح آلام قلبها ويأسها، وتمنت بانفعال شديد لو تستطيع أن تحمي ابنتها من مشاكل سن البلوغ.

قالت لها الآن بلطف: «هل نسيت أنني كنت أيضاً في السابعة عشرة؟».

«أوه، منذ سنوات وسنوات! كيف يمكنك أن تتذكري؟ وعلى أية حال»، قالت ليلى بقساوة، وبكل ثقة الشباب، «أنت لم تعيشي في هذه الأيام. ومن المحتمل أنك تزوجت أول رجل تقدم إليك، واستقريت لكي تنشئي عائلة».

تنهدت سعاد. إنه لا جدوى من مواصلة النقاش مع ابنتها ليلى وهي في هذه الحالة. كانت عاجزة تماماً عن إيجاد سبب. ليست هناك من مراهقة يمكن أن تصدق بأن والديها قد مرّا بتلك العاطفة والمعاناة مثلها تماماً.

«إنها ليست مسألة أنني لا أصدق بأنك تكنين عاطفة جياشة تجاه سمير»، أضافت بصبر. «إنني أعرف كيف تشعرين، وأصدقك. لكنك ما زلت صغيرة يا ليلى، وحتى سمير ليس لديه بيت أو عمل مستقر».

«هل توافقين إذا كان لديه؟»

متجاهلة رغبة القتال في نغمة ابنتها، قالت بطريقة معقولة: «حسناً، إنني ما زلت أعتقد بأن سن السابعة عشرة لا يسمح لك بالتفكير في الزواج، لكن على الأقل سيكون مستقبلك مضموناً أكثر مما هو الآن».

دفعت الفتاة بطبقها بعيداً ونهضت عن الطاولة بإيماءة تعبر عن الجحود. «فقط لأن سمير ليس مصرياً!» قالت بلهجة الإتهام.

قالت الأم وعيناها على وجه الفتاة الغاضب: «ليس لدي أي اعتراض على سمير. لقد أعجبت به خلال الفترة القصيرة التي رأيته فيها. لكنه يتوجب عليك أن تعترفي بأنك لا تعرفينه إلا من فترة قصيرة جداً، وعملياً لا تعرفين شيئاً عنه». متذكرة حادثة في شبابها قاومت الدافع لتضيف: «وعلاوة على ذلك، هو أكبر منك بكثير؛ وكل ما نعرفه، إنه قد يكون متزوجاً».

بعد لحظات من الصمت، قالت: «لو أنك فقط تنتظرين حتى ينهي دورته في لندن ويعود لوظيفة دائمة. إنها ستة أشهر فقط».

«ستة أشهر! لقد عرفت بأنك لن تفهمي». دفعت الفتاة كرسيها، وخرجت من الغرفة، وطرقت الباب خلفها. وبتنهيدة يأس أخرى، نهضت والدتها عن طاولتها وبدأت تجمع الأطباق.

بالطبع إنها تعرف شعور ليلى، ونظراً لأنها تعرف ذلك فقد نصحتها بتوخي الحذر. الفتاة تشبهها عندما كانت في سنها. لقد تذكرت بوضوح إنفعالاتها العنيفة، ومدى خشونة معاملة والديها لآلام قلبها الفتي.

أقسمت عندئذٍ، بأنها لو رزقت فتاة، فإنها لن تقف عقبة في طريق سعادتها، لكنها الآن، بحكمة خبرتها، أدركت أن والديها كانا على حق في عدم الرضوخ لإلحاحها. ماذا كان سيحدث لو أنهما وافقا على السماح لها بالزواج من الرجل الأول الذي تخيلت أن عاطفتها تميل إليه؟ كم يبدو صعباً على الفتاة أن تعرف الفرق بين الإفتتان والعاطفة.

جففت الأطباق بطريقة آلية، وهي تقطب حاجبيها. بالطبع، ليست كل الفتيات ينكبن بتلك العلاقات الفجائية العنيفة. فعلى سبيل المثال، شقيقتها كانت مختلفة تماماً. سارت نوال في طريقها بدماثة أخلاق، دون أن تسبب أي قلق لعائلتها، حتى إذا ما بلغت الثالثة والعشرين من عمرها، قررت بكل هدوء أن تتزوج من عصام شاكر، الشاب الذي يعمل في مزرعة مجاورة، واستقرت في حياة زوجية هادئة، لا يعكر صفوها شيء.

قلبت ليلى الأسطوانة في غرفة نومها، ومن طريقة اختيارها للأسطوانات، عرفت والدتها أنها ما زالت غاضبة ومتحدية. وعندما علقت فوطة الشاي الرطبة، فكرت

بإعياء: كم يعاني الأبوان من المراهقات الثائرات؟ لقد حاولتُ أن أكون متفهمة ومتعاونة وأن أنظر إلى الأشياء عبر منظارها، لكنني نوعاً ما لم أنجح.

عبرت الغرفة ووقفت تحدق في صورة والد ليلى. كانت عيناه الخضراوان تنظران بهدوء. لقد كانت لقطة أخذت له قبل وفاته بوقت قصير. إنها تظهره رجلاً نحيلاً، أشقر الشعر في الثلاثينات، ونظرته ساخرة نوعاً ما.

حجبت الدموع المفاجئة رؤيتها، وبحركة يائسة إبتعدتْ. لو أنه هنا الآن فقط لساعدها في هذه السنوات الحيوية. أحبت ليلى والدها لدرجة العبادة. نظرت سعاد إلى الوراء فأدركتْ أن ثورة الفتاة وتحديها لسلطة والدتها، ربما تنبع من صدمتها بفقدانه.

ونظراً لأنها هي التي نقلت إليها نبأ وفاته، فإن الفتاة تلومها على وفاته؟ ونظراً لأنها كانت مصدومة ومحطمة القلب، فإنها نادراً ما لاحظت حنق الفتاة في ذلك الوقت، لكنها أحست بالرعب لاحقاً من الطريقة التي حبست فيها الفتاة نفسها.

إن حزنهما المشترك كان من الممكن أن يقربهما من بعضهما أكثر، لكنه بدلاً من ذلك دق إسفيناً بينهما، وشعرت سعاد في بعض الأحيان أن ابنتها تكرهها. لقد كانوا ثلاثتهم أصدقاء طيبين، ووجدت أنه من المستحيل عليها أن تجمع البقايا المبعثرة حولها هي وليلى. ظلاً

متباعدتين، والفتاة تشمخ ببرود وتتباعد عن أمها.

آه لو أستطيع فقط أن أغور في أعماقها! إنها تكره أي تدخل في حياتها يأتي من ناحيتي، لكنها لو تدرك فقط مدى رغبتي في مساعدتها وتخليصها من القلب المحطم.

خلال السنوات الأربع منذ وفاة والدها فارس، بدت مرارة الفتاة في بعض الأحيان عداوة شخصية تحولت بصورة مباشرة على أمها.

لقد كان باستطاعة فارس أن يعالج هذا الوضع. كان دائماً متوازناً ومتفهماً، عاقلاً وواقعياً، وكانت ليلى دائماً تحترم حكمه.

خلافاً لتحطيم القلب الذي سببه لعائلته، فإن وفاة فارس كانت خسارة فادحة. لقد كان فقط في التاسعة والثلاثين يقوم بعمله كخبير في العظام على أكمل وجه، وبسبب بعض الشباب الطائش شرب كثيراً في إحدى الحفلات فتحطمت سيارته عند زاوية الجانب الخاطيء من الطريق. كانت حياة فارس ضحية مخالفة.

جلست الأم على الكرسي وأراحت رأسها بين يديها تعبيراً عن الهزيمة الكاملة.

أنت لا تعرفين معنى العاطفة! هذا ما كانت تعيّرها به ابنتها. كيف عرفت ليلى الصغيرة! لم تكن الحياة سهلة بالنسبة إلى سعاد الشابة، الحسّاسة، العطوفة، ونظراً لأن

شبابها كان مبعثراً مع آلام القلب، بفترات متناوبة من الفرح العارم واليأس المدمر، فإنها عرفت مدى الأهمية في ضرورة توجيه ليلى عبر سنوات المراهقة المضطربة نحو بر الأمان.

لقد عرفت أن هناك أناساً يقعون في بحر العاطفة مرة واحدة فقط في الحياة، لكن هناك أخريات، مثلها، وقعن في بحر العاطفة مرات عدة قبل أن يجدن الرجل المناسب. إن هذا لا يعني أن عاطفتهن كانت أقل حماسة أو أقل إخلاصاً عندما اكتشفن، أخيراً، العاطفة الحقيقية لحياتهن.

كانت سعاد في حوالي الرابعة من عمرها عندما شعرت لأول مرة بالعاطفة نحو ابن الجيران الذي كان يأتي لزيارتهم مع والديه. كان طفلاً أطول من عمره، وذو ابتسامة حلوة، خجولة. راح الطفلان معاً يستكشفان عجائب كتاب الصور الملونة. وبعد بضع دقائق نظر بحياء إلى رموشها الطويلة. «إنني أذهب إلى المدرسة»، قال بفخر.

إتسعت عيناها من فرط الدهشة عندما نظرت إليه. مدرسة! تلك كلمة سحرية. «هل أنت في السادسة؟»، سألته بخوف.

أطرق برأسه علامة الإيجاب. هناك سنتان قبل أن تبلغ الصغيرة السادسة. إنهما سنتين لا تنتهيان قبل أن تستطيع

سعاد أن ترى بطلها كل يوم.

حتى الرجوع إلى غرفة والديهما، قد فشل في كسر التعويذة، وعندما حان وقت مغادرته، كان قلب الطفلة الصغيرة قد أصبح أسير هذا الطفل الأسمر، الطويل، ذو البشرة الصافية، والصوت الناعم، المثير.

لوح لها بيديه بخجل وهو في سيارة والديه، لكنها لم تره ثانية. وقبل أن تبلغ السادسة لتذهب إلى المدرسة، انتقلت عائلتها من المنطقة، وتلاشت عاطفتها الأولى إلى الأبد.

كان تقدم سعاد في المدرسة الإبتدائية مشوباً بشؤون القلب. كان هناك دائماً طفل ينتظرها ليحمل كتبها إلى البيت ويساعدها في فروضها المدرسية. ونظراً لأنهم كانوا يعيشون في بلدة صغيرة، فإن عائلات الأطفال الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة أصبحوا يعرفون بعضهم بعضاً، وكان والد سعاد ووالدتها يبتسمان لقابلية ابنتهما الصغيرة في الوصول إلى البيت وخلفها طفل صغير.

عندما حان وقت مغادرة مدرسة البلدة الصغيرة والذهاب إلى مدرسة أقرب مدينة، فإنهما لم يكونا قادرين على تحمل التكاليف. تمكنا من تأمين إقامة ابنتهما مع عائلة صديقة خلال الأسبوع، وكانا يحضرانها إلى المزرعة في نهاية الأسبوع، وكانت والدتها تشترط قائلة: «لا سينما خلال الأسبوع ولا أصدقاء أولاد».

كانت سعاد في بعض الأحيان تتصل هاتفياً وهي تلهث: «ماما، هل يمكنني أن أذهب إلى السينما، هذه المرة فقط؟» هذا عندما يتكرم أحد التلاميذ لأخذها، لكن والدتها كانت ترفض المداهنة.

«أنت صغيرة جداً للخروج مع الأولاد، وعلاوة على ذلك، أنت في المدرسة للدراسة، وليس للتفكير بالأولاد،» تقول لها بحزم. حتى في حفلات الرقص المدرسية، كانت والدتها تتخذ الترتيبات مع العائلة الصديقة لإحضارها عند انتهاء الحفلة.

ورغم أن الأولاد كانوا يجدونها جذابة، فإنهم سرعان ما علموا بأنه لا جدوى من دعوة سعاد للخروج، لأنه لا يسمح لها بذلك.

خلال دراستها الثانوية، كانت تحترم بصمت سليم، كابتن فريق كرة القدم، وثلاث مرات خلال سنتها الأخيرة، عندما تنازل أخيراً ولاحظها، طلب الخروج معها، وكان عليها أن ترفض ثلاث مرات. وفي كل مرة، بكت بمرارة بسبب تعنت والديها ووقوفهما في طريق سعادة ابنتهما. عرفت في النهاية أن قلبها قد تحطم، عندما تحول في النهاية إلى صديقتها وبدأ يخرج معها.

بلغت الخامسة عشرة وانتهت أيام المدرسة. حزمت كتبها بفرح واستعدت لعهد المرأة. الآن ستبدأ في العيش.

لكنها لخيبة أملها، فإن والدتها ما زالت تعتبرها صغيرة جداً على الخروج مع الأصدقاء الشباب. برفقة خالتها ووالديها كانت تحضر حفلات الرقص المحلية، لكن بالنسبة للسؤال الذي كانت تتشوق إليه: «هل بمكنني أن أراك الليلة في البيت، يا سعاد؟» كانت لا تزال مضطرة للإجابة: «آسفة، إن الماما تعتقد بأنني ما زلت صغير جداً على الخروج مع الشباب».

«متى يمكنني الخروج؟» كانت تسأل بثورة، «الفتيات الأخريات الأصغر مني يسمح لهن بالخروج مع الشباب».

عندما تبلغين السادسة أو السابعة عشرة، سآخذ الموضوع بعين الإعتبار» كانت تخبرها والدتها بحزم، «ولا جدوى من إخباري بما تفعله الفتيات الأخريات. الموضوع لا يهمني».

شعرت سعاد بأن والدتها كانت قاسية، وزفرت زفرة حرّى لهذا الحظر، وهي تعلم جيداً بأنه لا جدوى من محاولة تغيير رأيها. عندما تصمم والدتها، لا مجال هناك للنقاش.

إن باستطاعة سعاد أن تتصور حنق ليلى إن هي عبرت عن رغبتها بمرافقتها للرقص. لا شك بأن الزمن قد تغير.

وذات ليلة، ثارت سعاد الشابة أخيراً. خرجوا إلى إحدى حفلات الرقص المحلية، وهم يتوقعون جمهوراً عادياً، مألوفاً، لكن قبل أن ينتصف المساء ـ وصل هو.

كان في حدود الخامسة والعشرين، طويل جداً، أسمر، ذو شارب جميل، ومليء بالرجولة.

تسارعت نبضات قلبها وهو يذرع الغرفة ويطلبها للرقص معه. كانت رقصة فوكس تروت، وتتبعت خطواته الرشيقة بمزيد من الإثارة.

رقص معها عدة مرات خلال الأمسية، وعرفت أن اسمه وسيم، وأنه كان في إجازة من إنكلترا مع السيد والسيدة زهران اللذين يقيمان في المنطقة وهما صديقين قديمين لعائلته. لقد أرسلاه إلى حفلة الرقص كيلا يضجر من عدم وجود شباب في البيت.

«في الحقيقة، لم أكن راغباً في الحضور»، اعترف بصراحة، «لكنني مسرور جداً الآن». إبتسم لها، ورفرف قلب سعاد بعصبية.

لاحظت مرة أو مرتين خلال الأمسية أن والدتها كانت تنظر إليها عابسة بقلق، لكنها تجاهلت ملاحظتها. لقد عرفت بأن والدتها اعتقدت بأنها تريد أن تظهر نفسها بالرقص كثيراً مع غريب، كما عرفت بأنها ستتعرض للوعظ عندما تعود إلى البيت، لكنها كانت مصممة بأن لا تدع ذلك يتدخل في استمتاعها بهذه الأمسية.

على أية حال، ماذا يمكنها أن تفعل حيال ذلك؟ لا يمكنها أن تقول له: «أرجوك لا ترقص معي كثيراً لأن

والدتي لا تحب ذلك». إنه سيعتقد بأنها مجنونة تماماً.

عندما انتهت الرقصة الأخيرة، قال لها بفرح: «لا أستطيع أن أعرض عليك إيصالك إلى بيتك لأنه ليست عندي أية وسيلة نقل، لكن هل يمكنك أن أوصلك إلى سيارتك؟».

نظرت حولها بسرعة، فشاهدت سعاد والدتها تفتح طريقها إلى غرفة العشاء لإحضار سلتها الفارغة. قالت له وهي تلهث: «سأحضر معطفي وألقاك عند المدخل».

همست بسرعة إلى خالتها: «أخبري الماما بأنني خرجت إلى السيارة». والتقطت معطفها، وهرعت قبل أن تحتج خالتها.

ربما تعجب وسيم من هذه السرعة في الوصول إلى السيارة، لكنه لم يعلّق. فرحت عندما وجدت والدها يودع أصدقاءه ولم يكن له من أثر عندما وصلا إلى الموقف.

«متى يمكنني رؤيتك مرة أخرى؟» أراد أن يعرف. «إن السيد زهران قد يعيرني السيارة وأستطيع إصطحابك إلى السينما ذات ليلة».

هزت رأسها بأسى. «لن تسمح لي بالخروج».

ألا تريدين؟»

«بلى، أوه نعم!» قالت بصوت لاهث.

«إذن سأتصل بك. هل إسمكم في دليل الهاتف؟»

أطرقت برأسها، ثم تمتمت: «تصبح على خير»، وهي تتمنى أن يذهب قبل أن يظهر والدها.

صافحها بحرارة. ذهلت، وأمسكت سعاد بباب السيارة، وهمست: «أرجوك أن تذهب بسرعة». استطاعت أن تسمع اقتراب صوتي والدتها وخالتها.

ابتسم لها وهو يتسلل بين السيارات المجاورة. نظرت والدتها بنوع من الشك إلى الفتاة، التي كانت تجلس بهدوء في المقعد الخلفي للسيارة عندما وصلتا إلى السيارة. «هل كان يجب عليك أن تهرعي هكذا، يا سعاد؟» قالت متذمرة. «كان بإمكانك الإنتظار لمساعدتنا في جمع أدوات العشاء».

«لم يكن هناك الكثير، أليس كذلك؟» أجابت بصورة عادية. «لقد كانت خالتي هناك».

لكن عندما كانت سعاد تنظف أسنانها في الحمام، دخلت خلفها وقالت ببرود: «هل كان عليك أن تظهري نفسك مع ذلك الرجل الغريب الليلة، يا سعاد؟»

قالت سعاد بغضب: «ولماذا لا أرقص معه عندما طلبني؟ إنه راقص مدهش، وأفضل من أي شاب من شباب البلدة».

«إن هذا ليس بالعذر الذي يسمح لك بالرقص معه طول

المساء. كل شخص كان يتحدث عنك».

بفم مليء بمعجون الأسنان، نطقت سعاد بصوت غير مسموع، وبعد بضع لحظات، خرجت المرأة العجوز وتركتها وحدها.

بعد ذلك اندست الفتاة في فراشها وهي تعلم بأنه لن يغمض لها جفن بقية الليل. إنها لم تصدق أن مصافحتها الأولى له ستكون مثيرة هكذا.

بالطبع، لقد كان وسيم رجلاً، وبكل أسف اعترف بأن من المحتمل أن يكون لديه المزيد من الخبرة.

«سأتصل بك»، كان قد قال لها. هل سيفعل؟

عندما اتصل، أخيراً، لم تكن مستعدة، ووالدتها، التي كانت في غرفة الجلوس، تلقت المخابرة. وبدون أن تبتسم ناولت السماعة لابنتها، واتجهت نحو النافذة بحيث تستطيع أن تسمع كل ما تقوله الفتاة.

«هالو يا ساحرتي الصغيرة»، حياها وسيم. «هل تعلمين أنك كنت تلاحقينني في أحلامي الليلة الماضية؟ أرجو أن أكون قد لاحقتك في أحلامك، أليس كذلك؟»

لو لم تكن والدتها موجودة لتجرأت وأجابت: «لا، لأنني لم أستطع النوم من تفكير بك. لكنها بدلاً من ذلك تلعثمت وقالت: «نعم.. لا».

«حسناً، قرّري. نعم أم لا؟»

««حسنا، لا».

«إذن اخرجي معي الليلة وسنصلح الأمور».

«أنا.. أنا لا أعتقد بأنني أستطيع».

«أوه، لكن يجب عليك أن تفعلي. لا يمكنك أن تخيبي أملي هكذا. لقد استأجرت السيارة. أرجوك تعالي. ستكون ليلة ممتعة، وهناك فيلم جيد في المدينة، إذا كان ذلك يساعدك في اتخاذ قرارك». قال لها بثقة.

«لحظة من فضلك». وضعت يدها على الهاتف، واستدارت نحو والدتها الواقفة إلى جانب النافذة، وقالت بيأس: «أرجوك، يا ماما، هل أستطيع الذهاب إلى السينما الليلة؟»

«السينما. الليلة؟ مع من بحق السماء؟»

«إنه وسيم. الرجل الذي قابلته الليلة الماضية».

«بكل تأكيد لا. أنت لا تعرفين شيئاً عنه».

«إنه صديق السيد والسيدة زهران».

«لا يهمني ذلك. إنك بكل تأكيد لن تخرجي مع رجل قلما تعرفينه. هذا ليس موضوع بحث، وسأخبره بذلك».

اتجهت بسرعة نحو الهاتف، والتقطت السماعة لتقول له: «آسفة جداً، لا يحق لي الخروج». وبجرأة أضافت بصوت ناعم قبل أن تعيد السماعة: «مع السلامة، يا

وسيم». استطاعت أن تسمع صوته عند الطرف الآخر، إنه ما زال يتوسل إليها، لكنها عرفت بأنها لو انتظرت طويلاً، فستخطف والدتها السماعة منها.

وهكذا خلال ساعات الليل الطويل اعتراها الأرق، وشعرت بأن قلبها سيتحطم لأنه سيعود إلى إنكلترا ولن تراه ثانية. ومرت سنة أخرى، وكبرت سعاد أكثر.

الفصل الثاني

لكن والدتها لم تستطع أن تبقيها تحت سيطرتها إلى الأبد، وعندما بلغت السادسة عشرة، ذهبت لتعمل في مكتب البريد في مدينة مجاورة على بعد بضعة أميال من بيتها. ونظراً لهذا البعد بالنسبة إليها لتسافر ذهاباً وإياباً كل يوم، فقد استأجرت لتقيم مع السيد والسيدة فواز، اللذين يملكان شققاً مفروشة للإيجار.

كان آل فواز زوجين طيبين عاملا مستأجريهم كعائلة واحدة كبيرة سعيدة. عند المساء كانوا يتجمعون في غرفة الجلوس، يقرأون، ويحيكون، ويلعبون الورق، ويصغون إلى الإذاعة، والشباب يلعبون كرة الطاولة.

سعاد وسهام سعيد كانتا الفتاتين الوحيدتين المستأجرتين، لكن كان هناك نصف دستة من الرجال، تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين، يشتغلون أشغالاً مختلفة في المدينة. الفتاتان كانتا تعملان في مكتب البريد، سعاد على الحاسب، وسهام على جهاز الهاتف.

أحبت سعاد حياة مجتمع بيت الشقق بعد عزلة المزرعة، حيث هناك فقط والديها وجميلة كأصدقاء. كانوا يرقصون كل ليلة جمعة خلال أشهر الشتاء. وفي الصيف

كان هناك التنس. والسباحة في النهر.

بدأت سعاد عملها في بداية شهر أيار، وخلال الشتاء كانت تذهب إلى الرقص ودور السينما مع العديد من الفتيان في المدينة، منطلقة بكامل حريتها الجديدة. لكنها لم تعشق ثانية إلا عندما التقت رشيد، وهي بكل تأكيد لم تكن تنوي الوقوع في غرامه لأنها عرفت، من البداية، أن رشيد ليس لها.

معظم المستأجرين كانوا يقيمون عند آل فواز منذ عدة سنوات، وقد التقت به منذ فترة طويلة. لقد سمعت سعاد عن رشيد، الذي كان غائباً خلال الشتاء، لكنه كان دائماً يعود إلى المدينة لعمل موسمي في الربيع.

رشيد، بدا أنه مفضل بشكل عام، وكثيراً ما سمعت سعاد: «حسناً، لن يطول الوقت ويعود رشيد»، أو «أليس جميلاً أن نرى رشيد ثانية؟» أو ما أشبه ذلك من ملاحظات.

«كم هو عمر هذا الرشيد؟» سألت سهام وهما في الطريق إلى العمل، قبل وصولهما بقليل.

«أوه، إنه في حوالي الثلاثين، على ما أعتقد. إنه مخطوب لفتاة جميلة جداً تدعى ضحى، لكنها تعيش في مدينة بعيدة. إنها تمتلك محلاً للثياب هناك، ونادراً ما أذهب إلى هناك لشراء ثيابي».

ثلاثون، ومخطوب! سعاد، في السابعة عشرة، طردته من ذهنها لأنه ليس هناك اهتمام محتمل بالنسبة إليها، لكن عندما وصل، فإن سنه وحتى خطيبته المجهولة، تلاشيا في الخيال أمام قوة شخصيته.

إنها لا تستطيع أن تفسّر السبب. لم يكن حسن الشكل بصورة خاصة. متوسط الطول، وذو شعر أشقر، وابتسامة جذابة، واستطاعت سعاد أن تشعر بالدم يذوب في عروقها.

شعرت سعاد بعد أسابيع، أن رشيد هو حبها الأول الحقيقي، لكن سرعان ما بدا واضحاً أنه لا يكن لها نفس الشعور. لقد طلب الخروج معها في السيارة مرتين، لكنه لم ير فيها أكثر من رفيقة طيبة. كان يمضي نهاية الأسبوع عند خطيبته، لكن لم يتحدث عنها لسعاد، ولم تجرؤ هي أن تسأله عنها. عندما غادر المدينة في بداية الشتاء، أخذ قلب سعاد معه، مع أنه لم يكن يعلم بذلك.

لكنها، بالطبع، سرعان ما شفيت من هذه العاطفة، فهي ما زالت شابة صغيرة. تزوج رشيد من خطيبته ضحى، وحسب معلومات سعاد، وكان سعيداً تماماً في العمل الذي استلمه في المدينة، وهكذا كان عليها أن لا تهجر مسيرة حياتها المختارة. رغم ذلك، راحت سعاد تتذكر بمرارة، كيف كان يمكنها أن تقيّم حياتها فيما لو نجحت وأصبحت زوجة لرشيد.

قررت سعاد أن لا تعشق ثانية. كانت تخرج للرقص مع شباب عديدين، وكانت تتمنى لهم ليلة طيبة عند انتهاء السهرة، لكنها أبقت قلبها مصوناً.

وبعد ذلك جاء جمال. كان جمال شاباً طويلاً، جذاباً، أسمر السحنة، وتدريجياً، مع مرور الأيام، نسيت الآخرين وأخذت تخرج معه بصورة حصرية.

كان شديد الغيرة، ويثور عند أقل ابتسامة توجهها لرجل آخر. كان يعمل لدى مزارع محلي يعيش على بعد عدة أميال من المدينة، ونظراً لأنه كان يمتلك سيارة قديمة، فإنه كان يمضي أمسية الأحد في مزرعة وليد، ويعيد سعاد ليلاً إلى شقتها. ليلة الجمعة بعد العمل، حضر والدا سعاد وأخذاها إلى البيت لتمضية نهاية الأسبوع. وقبل قدوم جمال، إذا كان صديقها الحالي لا يمتلك وسيلة نقل، كان والداها دائماً يعيداها مساء الأحد.

عندما بلغت التاسعة عشرة شعرت أنها قد كبرت وأنها قادرة على ترتيب أمور حياتها الخاصة. إنها ستتزوج جمال في بضع سنوات، وهكذا قررت، وستعيش بسعادة معه. اعترفت بأن عاطفتها حيال جمال لم تكن مثل عاطفتها نحو رشيد، لكن ذلك النوع من العاطفة قد يحدث مرة فقط في الحياة. كانت هذه عاطفة أعقل، وأنضج، قالت هكذا لنفسها بكل حكمة ابنة التسعة عشر ربيعاً.

لقد كان آل فواز هم أول من أثاروا الشكوك في عقل

سعاد حول إمكانية عيشها بسعادة مع جمال.

ذات مساء، عندما قررت المجموعة الذهاب معاً إلى حفلة الرقص في نادي التنس، اتصل جمال في اللحظة الأخيرة ليقول أنه لا يستطيع الذهاب بسبب عمل هام في المزرعة.

قالت سعاد، بخيبة أمل: «أوه، يا جمال، أي عار هذا! إن الرقص لن يكون ممتعاً بدونك».

«لكن بكل تأكيد لن تذهبي بدوني!» كان مغتاظاً للفكرة.

«حسناً، لن أستطيع التملص منها. إنني في اللجنة، وهناك ترتيبات كثيرة يجب القيام بها. لن أترك ذلك على الآخرين»، قالت له: «إنني سأذهب مع سهام والأخريات».

«والفتيان الآخرون، أيضاً، على ما أعتقد؟» قال بغيرة.

«لا تكن أحمق، يا جمال. أنت بكل تأكيد تثق بي؟».

«إذن لماذا تريدين الذهاب إلى حفلة الرقص بدوني؟» سألها بغضب.

«لكنني أذهب دائماً، يا جمال. كل فرد يذهب، وعندما أكون في اللجنة، فإنه يتوقع مني أن أكون هناك». ألمحت إليه بتعقل.

لكن بدون جدوى، وفي النهاية كان عليها أن توافق على البقاء في البيت. حاولت أن لا تشعر بخيبة الأمل عندما شاهدت الأخريات يرتدين ثيابهن بمرح. إنها تحب الرقص، ورغم أنها تعرف بأنه لن يكون ممتعاً بدون جمال، فإنها كانت ستستمتع ببهجة ارتداء الثياب والخروج لقضاء الأمسية.

بعد عدة أسابيع حان موعد حفلة العازبين والعازبات، التي تعتبر حدث الموسم. وصل جمال تلك الليلة قبل الوقت بكثير، لكنه ابتدع ألماً شديداً بأسنانه عندما كانوا على وشك الخروج، فلم يكن لدى سعاد خيار سوى البقاء معه فيما الآخرون خرجوا لتمتيع أنفسهم.

بالطبع، لا يستطيع أحد أن يتحمل ألم الأسنان، وحاولت سعاد أن لا تشعر بالحنق عندما افتكرت أن الآخرين يمرحون في الحفلة. وبالطبع، لم تكن هناك غرابة حول توقف ألم أسنانه عندما أصبح الخروج متأخراً. هذه الأشياء هي من عادة الأسنان.

أمسكها بذراعيه بعنف أمام النار الخفتة، وهمس: «أليس هنا أجمل، يا سعاد ـ فقط أنت وأنا ـ بدلاً من أن نكون متدافعين من الجمهور في قاعة الرقص؟»

أطلقت زفرة، وتمتمت الفتاة موافقة. لكن خاب أملها. لقد خاطت لنفسها ثوباً جميلاً لترتديه في أكبر حفلة للموسم. لقد كانت خيبة أمل حقيقية أن تترك الثوب معلقاً

في الخزانة، بدون أن ترتديه.

كانت ترقد مستيقظة عندما عاد الآخرون إلى البيت، فنادت سهام لتخبرها عن الحفلة.

«كل الشباب افتقدوك»، أكدت لها صديقتها سهام. «هذه هي ثاني حفلة تتغيبين عنها. لا بأس، فهناك حفلة المقر بعد أسبوعين، وستتمكنين من ارتداء ثوبك الجديد، فيما نحن سنرتدي نفس الثياب التي ارتديناها الليلة».

قالت سعاد: «وأنا قررت عدم التغيب عن تلك الحفلة. الموسم سينتهي سريعاً بدون أن أظهر».

تحدثتا لعدة دقائق، ثم نهضت سهام عن حافة السرير، وتمطّت، وقالت باعياء: «لقد كانت أمسية جميلة ـ القاعة جميلة، والموسيقى ناعمة، وقد سارت الأمور على غاية ما يرام بدون أي تعكير. إنه لعار أن لا تحضري يا سعاد».

توقفت عند الباب وقالت: «أوه، لقد كان هناك قادم جديد مثير. إنه مهندس على الجسر الجديد الذي يقيمونه على النهر. إسمه ابراهيم. طويل، أسمر، وجميل جداً. لقد وقعنا جميعنا في وسامته».

ذهبت إلى فراشها، وسعاد ما زالت ترقد مستيقظة، تحاول تجاهل الغضب الذي يتفاعل في قلبها. كانت تنتظر هذه الليلة بشوق، والآن قد انتهت وافتقدت المرح.

لا بأس، قالت لنفسها بحزم، وهي تحاول إبعاد النوم

عن عينيها، فقط هناك أسبوعان وسأستعد لتلك الحفلة.

عندما عادت إلى البيت من العمل بعد ظهر يوم حفلة المقر، لفت شعرها وأحضرت ثوبها من المصبغة.

توقفت السيدة فواز في طريقها وهي عائدة من المصبغة لتقول لها بهدوء: «أرجو أن لا يخيب أملك هذه المرة، يا سعاد».

نظرت الفتاة إليها بدهشة، «أوه لا، يا سيدة فواز. إنني واثقة أن كل شيء سيسير على ما يرام هذه المرة. إنني انتظرها بعد أن فقدت الحفلتين السابقتين. إنني متأكدة بأنه لن يكون هناك أي عائق».

فتحت المرأة الكبيرة فمها لتقول شيئاً، وغيرت رأيها، وانحنت لها وذهبت. عادت بعد بضع دقائق، سحبت كرسياً وجلست عليه، وقالت عن قصد: «هل أنت تكنين عاطفة جياشة نحو الشاب جمال، يا سعاد؟»

«لماذا، نعم، بالطبع».

«حسنا، لا تعتقدي بأنني أتدخل، لكنني أحبك كثيراً، يا سعاد. إنك مثل ابنتي، لو ساعدني الحظ بأن تكون عندي إبنة، وأنا أكره أن أراك تصابين بأذى مرة أخرى».

«لكن جمال يكن لي نفس العاطفة الجياشة»، قالت سعاد بدون تأكيد.

«أوه، نعم. إنني لا أشك في ذلك لحظة. لكن المشكلة هي أنه غيور بشكل رهيب، ويحب الإمتلاك، أليس كذلك؟»

«نعم، أعتقد أنه كذلك»، اعترفت سعاد، وهي تتذكر المرات العديدة التي حال فيها بينها وبين المرح.

«حسناً، إنني أعلم أنك عندما تكونين شابة، ربما تجدينه نوعاً من الإطراء عندما تعرفين أن الشاب يغير عليك كثيراً، لكن دعيني أقول لك أنه من الصعب جداً العيش مع الغيرة، وقد تكون سبباً في مزيد من التعاسة أكثر من أي عامل آخر في الحياة الزوجية».

«أوه، لكن بكل تأكيد...».

«إنني أعرف ما أقول، يا سعاد. تعلمين أنني تزوجت من قبل، وأنني طلقت زوجي الأول؟»

بدهشة، هزت سعاد رأسها، والمرأة تابعت: «كنت صغيرة جداً عندما تزوجته. كان شاباً صغيراً أيضاً. كان غيوراً بشكل رهيب، وفي شبابي وعدم خبرتي تقبلت ذلك كمقياس للعاطفة. كم كنت مخطئة، وكم عانيت نتيجة غلطتي!»

صمتت المرأة، وانتظرت سعاد، وهي تعلم بأن هناك المزيد. تابعت المرأة، وهي تحدق من النافذة نحو التلال البعيدة: «أستطيع أن أقول بصدق، أنه خلال حياتنا

الزوجية، لم أعطه سبباً للغيرة، لكن حياتنا كلها كانت كابوساً. حتى لو تحدثت إلى أحد المعارف في الطريق، فإنني أتهم بالمغازلة. لم يكن يسمح لي بالذهاب إلى أي تجمع لوحدي، وعندما أذهب معه، كان يختلق سبباً لأحداث مشكل حتى لو تحدثت بأدب مع رجل آخر. كان أمراً رهيباً. لقد قاطعت كل أصدقائي».

«كم هذا رهيب!» قالت الفتاة بعطف. «إنه رديء للغاية أن تتهمي عندما يكون هناك سبب، لكن عندما تكونين بريئة تماماً فإنك تشعرين عاجزة عندما لا يصدقك». تحدثت مع المرأة بإحساس لأنها واجهت نفس الوضع كثيراً مع جمال.

«لم يكن ذلك بالنسبة للرجال فقط. كان يغار من كل صديقاتي، وحتى من عائلتي. كنا نعيش بعيدين عنهم، وفي كل مرة نستعد لزيارتهم، كان يدعي المرض، أو يختلق عذراً غير معقول ليحول دون ذهابنا».

حلّق عقل سعاد نحو جمال والحفلتين اللتين افتقدتهما بسببه. لقد كان من المضحك أن تقول بأنه ادعى أن لديه ألماً في أسنانه ليلة الحفلة، وعلى أي حال، كان عليه أن يعمل ليلة حفلة نادي التنس. تلك لم تكن غلطته.

«لا أعتقد أن جمال سيحول دون تمتع نفسي»، قالت بحزم.

«وأنا لا أريد أن أفكر بذلك»، قالت السيدة فواز موافقة. «أرجو أن أكون قد أسأت حكمي، لكنني اعتقدت أن من الأفضل أن أحذرك».

قررت أن تكون مخلصة لجمال الغائب، قالت سعاد بهدوء: «إنها لم تكن غلطة جمال ليعمل في تلك الليلة التي كانت فيها حفلة نادي التنس. لقد كان يعد بذور الأعشاب لزرعها في اليوم التالي».

انفجرت السيدة فواز: «لكن دعيني أصارحك بالحقيقة، يا سعاد، والتي لم أذكرها من قبل، لكن حدث أن رقصت تلك الليلة مع رئيس عمل جمال وحدث أن ذكر كيف خاب أملك لأن جمال هو الذي أراد أن يعمل تلك الليلة. كان سكراناً يترنح وقال أنه ارتكب غلطة. جمال هو الذي أخبره بأنك لا تريدين الذهاب إلى الحفلة، وهو لا يستطيع الذهاب لوحده. لقد بقي جمال وذهب إلى فراشه».

«أوه!» حدقت سعاد في المرأة، وقد بدا الإمتعاض وعدم التصديق واضحين على وجهها.

«لم أكن أريد أن أقول هذا، يا سعاد، وبالطبع، قد يكون ألم الأسنان حقيقياً، لكنني أردت أن أحذرك، كيلا يخدعك ثانية».

«أوه، لكنه لا يستطيع! يجب أن يأتي الليلة»، صرخت

الفتاة. «لا يمكنه أن يخيب أملي عندما يعلم كم أتشوق لهذه الليلة. إنه يكن لي عاطفة قوية».

«أعلم ذلك، لكنه أيضاً يحب الامتلاك. إنه لا يحب أن يشاركك، كما تلاحظين. حتى أنه يكره صداقتك لسهام. مثل هذه العاطفة قد تصبح تسلطاً».

هبط قلب الفتاة، وأدركت أن السيدة فواز لم تكن تبالغ. كان جمال غيوراً حتى من علاقاتها البريئة مع الآخرين. هو يريد كل اهتمامها...

عندما تم غسل الأطباق بعد العشاء، سهام وسعاد بدأتا تمشطان وترتبان شعريهما، وهما تتحدثان بشوق عن الليلة المقبلة.

كانت سعاد تستعد لارتداء ثوبها عندما دعيت إلى الهاتف. وضعت معطفاً عليها والتقطت السماعة، ثم شعرت بكارثة مفاجئة عندما سمعت صوت جمال.

«ما الأمر، يا جمال؟ اعتقدت أنك ستكون في طريقك الآن»، قالت بسرعة.

«أنا آسف جداً، يا سعاد، لم أستطع تشغيل السيارة».

حتى لأذنيها، بدا صوته مرتعشاً عندما قالت: «لكن لماذا لا تدور؟ لقد كانت على ما يرام ليلة الأحد».

«أعرف، يا عزيزتي، لكن أحياناً يكون هناك خطأ. إنها بكل بساطة لن تدور».

«إذن اتركها، واحضر مع السيد والسيدة بركات».

بعد لحظة تردد، قال: «لا أستطيع. لقد ذهبا». كانت هناك نبرة انتصار في صوته.

نظرت سعاد إلى ساعتها. «لقد ذهبا باكراً»، قالت باتهام. «إن الساعة لم تتجاوز حتى السابعة والنصف».

«ربما سيعرجان على مكان ما في طريقهما. أنا آسف جداً، يا سعاد، لكنني أعدك بإصلاحها غداً، وسأحضر مساءً لرؤيتك».

قالت سعاد ببرود: «الحفلة الليلة. بكل تأكيد يمكنك الحضور بطريقة ما. إركب دراجة. سأذهب إلى القاعة مع الآخرين وألقاك هناك».

«هل الرقص بهذه الأهمية؟» لاحظت الغضب البارد في صوته، لكنها هذه المرة رفضت أن تداهنه، خاصة وأنه يتحدث بصوت خافت على الهاتف، كما سمعت صوت السيدة بركات وهي تنادي زوجها. إذن هما لم يغادران. من الواضح أن السيارة كانت عذراً آخر لإبعادها عن الحفلة.

«نعم، إنها حفلة هامة بالنسبة لي»، قالت بوضوح. «لقد تغيبت عن الحفلتين السابقتين، وأريد الذهاب إلى هذه الحفلة مهما كلف الأمر. إنه لم يعد يهمني سواء حضرت أم لم تحضر. إنني أرفض الإنصياع لثورة

غضبك. إنني ذاهبة للرقص الليلة، يا جمال، وسأرقص مع من أشاء مثلما كنت أفعل من قبل وسأمرح كثيراً».

«يا سعاد، أنت لن تذهبي بدوني!». بدا الكبرياء مجروحاً في صوته.

قالت الفتاة بوضوح: «إسمع، يا جمال. لقد انتهى كل ما بيننا. أنا آسفة إذا كنت قد آلمتك وأغضبتك، لكن هذا هو قراري النهائي. سأذهب الليلة إلى الحفلة، وأنا ذاهبة لوحدي. تصبح على خير».

كان لا يزال يحتج عندما أعادت السماعة وسارت ببطء إلى غرفتها. وهكذا كان ما كان. لقد كانت السيدة فواز على حق. كان جمال غيوراً ومحباً للإمتلاك، ومصمماً على الإحتفاظ بها لوحده. حسناً، لقد انتهى كل شيء الآن. ستذهب إلى الرقص مع الآخرين، وبالرغم من كلماتها الشجاعة، فقد شعرت بأن الأمسية قد فسدت.

هرعت سهام بعد بضع دقائق، فوجدتها لا تزال جالسة أمام المرآة، تحدق في الفضاء. «أسرعي، أيتها الحالمة، سيصل جمال قبل أن تكوني جاهزة»، قالت لها.

«جمال لن يأتي»، ردت سعاد بفتور.

«أوه لا، ليس للمرة الثانية!» قالت سهام بامتعاض.

«نعم، للمرة الثانية»، ردت صديقتها. «لكن هذه المرة لن أتغيب عن الحفلة. أنا ذاهبة، وأنا ذاهبة لأمرح وأقضي

وقتاً ممتعاً ـ لكي أعوض عن المرات السابقة التي قضيتها في البيت».

«هذا خير لك». ابتسمت سهام علامة الموافقة. «هيا، علينا أن نسرع، فالآخرون جاهزون تقريباً».

بعد بضع دقائق انضمتا إلى بقية المستأجرين، والسيد والسيدة فواز وانطلقوا نحو الحفلة.

لم يذكر أحد جمال. ربما سمعوا ما قلته له عبر الهاتف، تذكرت سعاد بمرارة. إنني متأكدة بأنني رفعت صوتي إلى أقصى حد، لقد كنت غاضبة.

والآن عندما سنح لها الوقت للتفكير، توقعت أن تشعر بأنها تتألم بمرارة وتحررت من الوهم لدى معرفة أن غراماً آخر قد انتهى، لكنها فقط كانت مدركة للإحساس الكبير بالإرتياح. ربما غداً ستعاني من ألم القلب والندم، لكن في هذه الليلة لن تشعر بشيء.

في بداية الأمسية أحضرت سهام الشاب الجميل ابراهيم، وقدمته إلى سعاد. ببعض الإرتعاش، نهضت الفتاة لترقص معه. كيف بحق الإله يتبادل المرء حديثاً خفيفاً مع شخص من بلاد بعيدة؟ لا حاجة لديها لتشعر بالقلق، مع ذلك. وفيما كان يراقصها بخبرة في القاعة، قال لها بابتسامة دافئة: «دعينا نرقص الآن ونتحدث لاحقاً، هل هذا ممكن؟»

أطرقت برأسها. سعاد تحب الرقص، وقبل أن يدورا القاعة مرة، عرفت أنها لم ترقص مع هكذا شريك. لقد كانت الرقصة هي رقصة الفالس المحببة إليها، لذلك كانت خطواتهما متناسقة.

لم يكن جمال بالراقص الماهر، ومعظم الشباب الذين عرفتهم يفضلون جعل المناسبة إجتماعية عن طريق الرقص. لكن الرقص مع هذا الشاب كان كمن يرقص في حلم، وأطلقت الفتاة تنهيدة ندم عندما انتهت الرقصة.

ابتسم إليها وهما ينتظران الموسيقى لتعزف من جديد. «هل استمتعت بالرقصة؟»

«أوه، نعم!»

«حسناً. يجب أن نرقص مع بعضنا دائماً، من فضلك».

عندما عزفت النوطة الأخيرة، عادا إلى حيث كانت تجلس سعاد، لكن بدلاً من أن يشكرها ويعود للإنضمام إلى جماعته من الرجال، جلس إلى جانبها وقال: «الآن نتحدث. أخبريني عن نفسك، من فضلك. هل تقيمين هنا؟»

تحدث بلكنة غريبة وجدتها سعاد فاتنة. عندما أخبرته أنها تعمل في مكتب البريد وتقيم عند السيد والسيدة فواز، قال: «حسناً. إذن سنرى بعضنا كثيراً. لماذا إذن لم تكوني

في حفلة الرقص التي حضرتها منذ أسبوعين؟»

اضطربت، وتمتمت شيئاً ما حول عدم تمكنها من الحضور، وسألها ثانية، ملمحاً: «شيء مؤسف. لقد كان بإمكاننا اللقاء من قبل هنا».

شعرت بالأحداث تتحول نحوها بسرعة، وفي نهاية الرقصة الثالثة معه، أرغمت نفسها لتقول له بحزم: «أنظر، أرجو أن تفهم. إنني أميل إلى الرقص معك، لكن عليّ أن أقوم بواجبي نحو بعض الأصدقاء. إذا لم يكن لديك مانع».

ابتسم إليها بأدب. «هيا اذهبي. إنني أعلم بأنني لا أستطيع أن أتوقع بأن أكون الوحيد الذي يريد مراقصة فتاة ساحرة مثلك، لكن احفظي لي رقصة فالس العشاء والرقصة الأخيرة، من فضلك؟»

أطرقت برأسها وأسرعت نحو رامز. إن رامز يقيم عند السيد والسيدة فواز، وهو صديق خاص لسهام.

لم تكن سعاد تتوقع ظهور جمال في الحفلة، خاصة عندما وجد أنها مصممة على الذهاب، لكن عندما دقت الساعة الحادية عشرة ولم يظهر، قررت بأنه لن يحضر.

كانت تأمل بأن يتقبل رفضه بروح طيبة. كانت تعلم بأن كل شخص كان يتساءل عن سبب غيابه ـ ومن المحتمل أن

يتساءل حول مراقصتها للغريب الأسمر. أيضاً، هكذا استنتجت.

سهام ورامزاً إنضما إليهما على طاولة العشاء. وتحت غطاء من الحديث العام همست سهام: «حسناً، إنني أحب ذلك! لقد عرفتك على أجمل رجل في الحفلة، وسرعان ما اختطفته رغم أنفي. على كل حال، أنا رأيته أولاً».

«آسفة». ابتسمت سعاد. «إنه مدمّر، أليس كذلك؟ وأنا لم أقصد التجاوز».

«أوه، إنها ليست غلطتك»، قالت سهام. «يجب أن أعترف بأنه هو المعتدي. لكن ماذا سيحدث لو حضر جمال؟»

هزت الفتاة رأسها بذهول. إنها لم تكن تدري ما الذي حدث لها. لقد بدا جمال بأنه كان شخصاً عرفته في حياة أخرى. إنها الآن مقيدة بهذا الأسمر الغريب المدمر.

خلال الرقصة الأولى التي تلت العشاء استطاعت سعاد أن تلمح وجه جمال بين الرجال المتجمهرين عند المدخل، وللحظة شعرت أنها على وشك الإغماء من الصدمة عندما تطاير الشرر من عينيه وهو ينظر إليها.

ارتبكت، ونظر إليها إبراهيم باهتمام. «متعبة؟» سألها.

هزت رأسها، وأبعدت عينيها عن الباب حتى انتهت الرقصة.

وضع يده على خصرها وهما يعبران القاعة للعودة إلى مكانهما. وقبل أن يصلا إلى المقعد، تقدم جمال ليعترض طريقهما. «أريد التحدث إليك، يا سعاد»، قال بإصرار.

توقف ابراهيم، ونظر باحتقار إلى هذا الغريب الجاهل الذي يعترض طريقهما، ثم نظر إلى سعاد متسائلاً.

تمتمت بسرعة: «يا جمال، هذا السيد ابراهيم. يا سيد ابراهيم، هذا جمال».

«كيف حالك»، قال الشاب الأسمر بأدب، لكن جمال متجاهلاً التحية، قال ثانية: «أريد التحدث إليك، يا سعاد».

راح ابراهيم ينظر إليهما باستغراب، ثم رداً على إطراقة خفيفة من الفتاة، قال: «إذن سأترككما معاً. سأراك لاحقاً، يا آنستي». وذهب.

وحالما ابتعد عن مسمع الأذن، انفجر جمال غاضباً: «كيف تفعلين هذا، يا سعاد! ترقصين مع غريب».

بجهد، سيطرت سعاد على أعصابها وقالت بهدوء: «هل كان من الواجب أن تجعل من نفسك أحمقاً أمام الجمهور، يا جمال؟ لقد رقصت معه فقط».

«تقريباً كل رقصة، وتعشيت معه». كان الغضب يطل من عيني جمال. «إذن لهذا السبب جئت إلى الحفلة بدوني»، قال بمرارة. «كان يجب أن أعرف بأن هناك سبباً لطردي بهذه السرعة».

«يا للأسف، يا جمال! إنني لم أعرف الرجل إلا الليلة».

«ومع ذلك رقصت معه طول المساء، وجلستما خلال الرقصات أيضاً». ملاحظاً بداية دهشتها، قال: «لا تعتقدي بانني لم أرك. لقد كنت عند النافذة لفترة، أراقبك وأنت تجعلين من نفسك حمقاء».

خائفة، أدركت الفتاة، أنه كان واقفاً في الظلام، يغذي غيرته برؤيته لها وهي تراقص ذلك الشاب الأسمر، الطويل، الجميل. إنه الآن لا يستطيع أن يحتوي نفسه.

كانت غاضبة جداً بحيث لا تستطيع أن تشعر بأي عطف نحو معاناته الواضحة. معظم الأزواج عادوا ثانية إلى القاعة، يرقصون. عرفت كم سيكون غريباً وقوفهما عند حافة قاعة الرقص، وهما يتجادلان، قال: «هل لديك مانع لو رقصنا؟» أضافت في محاولة يائسة بكلام عادي: «كيف وصلت إلى هنا؟»

«في السيارة، بالطبع»، أجاب باختصار، وكان واضحاً أنه لا يكترث إلى أي استنتاج ستتوصل إليه حول حقيقة أن

السيارة تحركت مرة أخرى. «إنني لن أرقص»، قال بعناد. «لم آت إلى هنا لأرقص. لقد جئت لآخذك إلى البيت. هيا تعالي».

حاول أن يمسك بذراعها، لكنها قالت بعنف: «لست مستعدة للذهاب إلى البيت. لا تزال هناك ساعة للرقص».

عاد يقول لها: «أرجوك، يا سعاد، لا يمكنك أن تفعلي هكذا بي. نحن نكن عاطفة نحو بعضنا، كما تعلمين. لا يمكنك أن تخذليني هكذا».

«أو لم تخذلني في بداية هذه الأمسية؟ والليلتين السابقتين، أيضاً، عندما كنت أتلهف للذهاب إلى الرقص؟» كان صامتاً لهذا الإتهام، وهزت رأسها بأسى، قالت سعاد: «لا فائدة، يا جمال. لا يمكنك أن تعيد الحياة لعاطفة ميتة. لقد انتهى كل شيء. دعنا الآن ننسى الموضوع».

استمر في جداله بصوت منخفض وعصبية، وكانت الفتاة طوال الوقت واعية لنظرته الفاحصة، المحيّرة لوجه الرجل الأسمر الذي كان يراقبهما. ماذا سيعتقد؟ أية وقاحة هي التي رمى جمال نفسه فيها أمامهما، متجاهلاً التعريف وطالباً التحدث إلى سعاد كأن ذلك من حقه.

اندفع الجمهور إلى قاعة الرقص من جديد الآن، وسهام ورامز انضما إليهم. «أهلاً يا جمال، لقد وصلت أخيراً»، حيّته سهام، متجاهلة عن تصميم وجهه المحدّق.

استخف بالجواب، وفي بضع دقائق، بعد أن انضم رامز إلى الرجال الآخرين، سحبت سهام سعاد على الكرسي بجانبها وأخذتا تتبادلان حديثاً ودياً. ظل جمال واقفاً أمامهما صامتاً يتململ.

عندما أعلن عن الرقصة التالية، اندفع الرجال بحثاً عن رفيقات لهم. اقتربت الأمسية من نهايتها، ونظراً لوجود رجال أكثر من الفتيات، فلا رجل رغب في ترك رفيقته.

وقف ابراهيم أمام سعاد، وقال بابتسامة: «هل يمكنني أن أسعد بمراقصتك، يا آنسة؟»

نهضت بدون أن تنظر إلى الرجل الصامت إلى جانبها، لكن عندما تقدمت نحو الرجل الأسمر، سمعت جمال يقول بتهديد خافت: «دع فتاتي وحدها، أيها الدودة»، وشعرت بحركة مفاجئة إلى جانبها.

نظرت، مذهولة، لترى يد جمال تمتد وتضرب ابراهيم تحت عينه بدون سابق إنذار.

رماها ابراهيم بسرعة نحو ذراعي رامز، وبدون كلمة دفع جمال عبر الباب قبل أن يلاحظ الآخرون ما حدث.

قالت سعاد بسرعة، وهي خائفة: «إلحق بهما يا رامز. لا تدعهما يقتتلان».

قال رامز لسهام: «هيا، قوما وارقصا أنتما الاثنتين، كأن شيئاً لم يحدث. سأخرج وأرى ما يمكنني عمله».

شعرت سعاد بالبرد. كيف يمكنه! أن يضرب رجلاً غريباً على عينه لأنه طلب أن يراقصني؟ ماذا سيعتقد الرجل؟ شعرت بالخزي والإذلال.

همست بيأس إلى سهام: «سأذهب إلى البيت. لا أستطيع مواجهة ذلك الرجل بعدما حدث. ماذا سيعتقد؟»

«لكن لا يمكنك أن تخرجي بدون أن تعرفي ما الذي يجري. إنتظري، على الأقل، حتى يعود رامز».

«إنني أشعر بالخزي والعار. لقد بدأ جمال بالصياح وسط القاعة».

«لم يكن ذلك في الوسط»، أراحتها صديقتها. «لم يلاحظ أحد. لقد دفعه ابراهيم بسرعة إلى الخارج. إرفعي رأسك، وانظري في عين كل شخص، لم يشتبه أحد بشيء»، نصحتها.

بعد بضع دقائق شاهدتا رامز عند المدخل فدارتا حتى وصلتا عنده.

سألت سهام السؤال الذي خافت سعاد أن تسأله. «لم تدم طويلاً»، ابتسم رامز مؤكداً لهما. «لقد أصيب جمال في عينه إصابة أسوأ من إصابة ابراهيم، ولا أعتقد بأنه سيعود إلى هنا الليلة».

«وابراهيم؟»

«لقد طلب مني أن أخبرك بأنه سيعود بعد بضع دقائق، يا سعاد».

«لكنني لا أستطيع مواجهته»، شهقت سعاد. «أسرعي، يا سهام، واحضري لي معطفي، ودعيني أخرج من باب غرفة الطعام. سأعود إلى البيت من الطريق الخلفي ولن يراني أحد».

«لا يمكنك أن تهربي من أمامه»، احتجت سهام، لكن بدون جدوى وعندما وجدا أنها مصممة على الهرب، أصر كل من رامز وسهام على مرافقتها إلى البيت والإطمئنان على سلامتها.

«أنت لا تعرفين، أن جمال قد يكون في انتظارك، وفي حالته الحاضرة لن يكون مسؤولاً عن أعماله»، قال رامز.

بعد أن أوصلا سعاد إلى البيت، رامز وسهام عادا إلى القاعة. عادا بعد ساعة تقريباً، وطرقت سهام على باب سعاد. لم تستطع سعاد أن تنام ودعت سهام لتتحدث معها.

«ماذا قال ابراهيم؟» سألتها.

«قليلاً، لقد أخبرناه بأنه كان عليك أن تعودي إلى البيت، فبدا مذهولاً للحظة، ثم قال: «أوه، هل كان عليها، كان عليها أن تذهب؟ لقد فهمت».

بخيبة أمل غاضبة، قالت سعاد: «هل هذا هو كل

شيء؟» فاطرقت سهام. «ومن ثم ماذا حدث؟» أرادت سعاد أن تعرف.

«لا شيء. بقي إلى أن انتهت الحفلة، ثم ذهب إلى بيته. أوه، لقد كدت أن أنسى، وعندما رامز وأنا وصلنا إلى البوابة ونحن في طريقنا إلى البيت، دفع جمال سيارته إلى جانبنا وأراد أن يعرف أين أنت. لقد قلت له بلباقة أنك في فراشك منذ فترة طويلة، وأنه كان من المؤسف عدم بقائه الليلة في بيته حسبما قال، بدلاً من الحضور والتسبب في عراك».

«أوه، يا سهام!».

«حسناً، لقد كنت حانقة جداً منه. لو أن ابراهيم لم يدفعه بسرعة إلى خارج القاعة، لعرف كل شخص ما كان يجري، وأعتقد أي إحساس كان السبب».

خرجت سهام، وأغلقت الباب بهدوء، تاركة الفتاة الأخرى عرضة للهواجس. نامت سعاد الساعات القليلة الباقية من الليلة. ماذا سيقول ابراهيم عنها؟ فتاة قابلها لتوه، والتي لم تكن قانعة بتوريطه في مشادة مع صديقها السابق، بل هربت منه حتى بدون كلمة اعتذار. لماذا لم تكن لديها الشجاعة لتبقى وتقول له أنها كانت آسفة؟

هل كانت حجتها في الهرب لأنها كانت جبانة لتواجه الإحتقار الذي كانت متأكدة بأنها ستراه في عينيه؟ عندما

«لقد طلب مني أن أخبرك بأنه سيعود بعد بضع دقائق، يا سعاد».

«لكنني لا أستطيع مواجهته»، شهقت سعاد. «أسرعي، يا سهام، واحضري لي معطفي، ودعيني أخرج من باب غرفة الطعام. سأعود إلى البيت من الطريق الخلفي ولن يراني أحد».

«لا يمكنك أن تهربي من أمامه»، احتجت سهام، لكن بدون جدوى وعندما وجدا أنها مصممة على الهرب، أصر كل من رامز وسهام على مرافقتها إلى البيت والإطمئنان على سلامتها.

«أنت لا تعرفين، أن جمال قد يكون في انتظارك، وفي حالته الحاضرة لن يكون مسؤولاً عن أعماله»، قال رامز.

بعد أن أوصلا سعاد إلى البيت، رامز وسهام عادا إلى القاعة. عادا بعد ساعة تقريباً، وطرقت سهام على باب سعاد. لم تستطع سعاد أن تنام ودعت سهام لتتحدث معها.

«ماذا قال ابراهيم؟» سألتها.

«قليلاً، لقد أخبرناه بأنه كان عليك أن تعودي إلى البيت، فبدا مذهولاً للحظة، ثم قال: «أوه، هل كان عليها، كان عليها أن تذهب؟ لقد فهمت».

بخيبة أمل غاضبة، قالت سعاد: «هل هذا هو كل

شيء؟» فأطرقت سهام. «ومن ثم ماذا حدث؟» أرادت سعاد أن تعرف.

«لا شيء. بقي إلى أن انتهت الحفلة، ثم ذهب إلى بيته. أوه، لقد كدت أن أنسى، وعندما رامز وأنا وصلنا إلى البوابة ونحن في طريقنا إلى البيت، دفع جمال سيارته إلى جانبنا وأراد أن يعرف أين أنت. لقد قلت له بلباقة أنك في فراشك منذ فترة طويلة، وأنه كان من المؤسف عدم بقائه الليلة في بيته حسبما قال، بدلاً من الحضور والتسبب في عراك».

«أوه، يا سهام!».

«حسناً، لقد كنت حانقة جداً منه. لو أن ابراهيم لم يدفعه بسرعة إلى خارج القاعة، لعرف كل شخص ما كان يجري، وأعتقد أي إحساس كان السبب».

خرجت سهام، وأغلقت الباب بهدوء، تاركة الفتاة الأخرى عرضة للهواجس. نامت سعاد الساعات القليلة الباقية من الليلة. ماذا سيقول ابراهيم عنها؟ فتاة قابلها لتوه، والتي لم تكن قانعة بتوريطه في مشادة مع صديقها السابق، بل هربت منه حتى بدون كلمة اعتذار. لماذا لم تكن لديها الشجاعة لتبقى وتقول له أنها كانت آسفة؟

هل كانت حجتها في الهرب لأنها كانت جبانة لتواجه الإحتقار الذي كانت متأكدة بأنها ستراه في عينيه؟ عندما

ظهر جمال فجأة، طالباً التحدث إليها ومتجاهلاً الرجل الآخر، فلن يكون هناك استنتاج واضح بأن لجمال الحق المسبق على إخلاصها؟

حتى هذه الليلة، التي كانت بدون شك هي القضية، لكنها في المساء عبر الهاتف قد أكدت لجمال أن كل شيء بينهما قد انتهى. إنها لم تكن غلطتها إذا كان قد رفض قبول قرارها.

رغم خروجهما معاً بانتظام لمدة ستة أشهر، فإنهما لم يعلنا خطوبتهما، لكنها كانت مضطرة للإعتراف بأنها اعتقدت أنه سيكون زوجاً جديراً. ربما اعتقد بأن له حقاً معيناً ليعارض رقصها طول المساء مع رجل غريب تماماً، لكن هذا لا يعطيه العذر في التسبب بعراك مع رجل بريء تماماً.

بتنهيدة ندم، طردت كل أحلام الصداقة مع ابراهيم الجذاب. بعد الأحداث الدراماتيكية التي وقعت في المساء فإنه بكل تأكيد لا يريد رؤيتها ثانية. رغم ذلك فقد وجدته رفيقاً فاتناً وهي تتشوق للقائهما المقبل.

أوه حسناً، لكن لا تجري الرياح بما تشتهي السفن. على الأقل هي شاكرة للحقيقة لأنها وعت في الوقت المناسب حب جمال للتملك. لم يكن لديها شك بأنه عن سابق تصور وتصميم قد أبعدها عن الحفلتين السابقتين. راحت تتذكر فترة صداقتهما، فأدركت جيداً أنها في كل

مرة رقصت معه، كانت الأمسية تنتهي بجدال لأنه اعتبر أنها كانت متوددة جداً نحو شخص آخر في الحفلة.

كان دائماً يريد أن يحتكرها، ولا يستطيع أن يرى، نظراً لأنها معروفة جيداً لعملها في مكتب البريد، أن عليها أن تكون مؤدبة ومتوددة مع الجميع. ورغم أن غيرته كثيراً ما أغضبتها، فقد استطاعت دائماً أن تلاطفه حتى يستعيد طبيعته الطيبة ثانية عن طريق تأكيدها له بأنه الوحيد الذي تكنّ له عاطفة جياشة.

كان ضميرها صافياً. فهي لم تغازل أي رجل آخر. كانت تميل كثيراً إلى جمال. والآن أدركت بأنه لا ندم لأن علاقتها مع جمال قد انتهت بعد ستة أشهر.

تذكرت كيف، منذ بضعة أسابيع فقط، قد ألمحت له متى سيحين موعد زواجهما، لكن والدتها قالت لها بحزم: «ليس قبل أن تبلغي الحادية والعشرين، على أي حال. إنك عرضة لتغير رأيك».

«ليس الآن»، ردت بثقة، «إنني أنوي الزواج من جمال».

«وماذا عن الشباب الآخرين الذي اعتدت على إحضارهم إلى البيت؟ منذ عدة أشهر وأنت تحضرين في نهاية كل أسبوع شاباً آخر».

«آه، لكنني لم أرغب في الزواج من أحدهم»، أكدت لوالدتها.

«لا أستطيع أن أفهمك، يا سعاد»، اشتكت الوالدة. «كل أولئك الشباب الذين كنت تخرجين معهم ـ لماذا تخرجين معهم وأنت لا تنوين الزواج من أحدهم؟»

«لكنني لم أخرج مع شباب مختلفين، كيف يمكن لي أن أعرف أنني قابلت الشاب المناسب؟» قالت الفتاة. «إنني أؤمن بالتأكد، والقاء نظرة. لكن لا بعد الآن»، أنهت كلامها وهي واثقة من نفسها.

أخذت الوالدة تعجب بمرارة لماذا لم تكن سعاد مثل شقيقتها الكبرى، التي كانت قانعة في البقاء بالبيت مع والديها ولا تندفع في الخروج هنا، وهناك، وفي كل مكان مع شباب مختلفين في كل ليلة من الأسبوع، لكن سعاد قالت بمرح: «أوه حسنا، إننا لا يمكن أن نتشابه، وقد مرحت كثيراً بخروجي مع أولئك الآخرين. لكنني الآن مستعدة تماماً للإستقرار مع جمال».

الفصل الثالث

عند التدقيق في حسابات العمل قبل دقائق من موعد الإقفال لليوم التالي، سمعت سعاد صوت وقع أقدام تقترب فنظرت لترى ابراهيم يقطع الصالة باتجاهها. احمر خداها خجلاً وارتباكاً.

«طاب يومك، يا آنستي»، حياها بابتسامة دافئة.

«طاب يومك، يا سيد ابراهيم»، ردت، وهي عاجزة عن مقاومة النظر إلى الجرح الداكن تحت عينه. «هل يمكنني أن أساعدك؟» سألته.

«نعم من فضلك، أخبريني، يا سعاد»، قال وهو يشدد على المقطع الأخير من اسمها، «هل أنت فتاته؟ هذا ما ناداك به. هل لديه الحق بأن يدعوك فتاته؟»

اتكأ على الحاسب، وكان صوته منخفضاً، وعيناه جادتان ويقظتان. لم يكن هناك زبائن آخرون في مكتب البريد، والسيد خليل، المسؤول، كان مشغولاً في مكتبه في الغرفة الخلفية.

«لا، أنا لست فتاته»، قالت سعاد بعنف، ثم اعترفت: «حسناً، لقد كنت، لكن كما ترى، لقد حدثت مشادة. . .» تلعثمت.

«لكنك لست فتاته الآن؟» نظر إليها متسائلاً.

«لا.»

«حسنا. متى تنتهين من عملك؟»

نظرت إلى الساعة. «في حوالي ربع ساعة»، أجابت وهي تلهث.

«سأنتظر في الخارج». واستدار ليذهب، ثم أخرج يداً مليئة بالنقود من جيبه، وقال بابتسامة تآمرية باتجاه المسؤول: «أريد أن أتسبب في مشكلة عن طريق القيام بعمل شخصي خلال ساعات العمل. أريد دستة من الطوابع من فئة الدراهم، من فضلك».

عندما ناولها النقود، ماذا يمكنها أن تقول؟ لكنها قبل أن تفكر بأي شيء، تناول الطوابع، وبتحية مختصرة، كان قد ذهب.

راقبت ظهره وهو يختفي عبر الباب، ثم عادت إلى العمل الذي كان في يدها. لكنها جمعت عامود الأرقام ثلاث مرات، وفي كل مرة كان الجواب مختلفاً، قبل أن تهز نفسها وتركز كل عقلها على العمل.

كلما أسرعت في الإنتهاء، كلما أسرعت رؤيتها له من جديد، وبالرغم من كل شيء، أليست حقيقة حضوره إلى هنا هي دليل على رغبته برؤيتها ثانية؟

بعد ذلك بقليل ارتعشت يداها، وهي تضع أحمر الشفاه وتمشط شعرها في غرفة المعاطف الصغيرة. ثم أغلقت الباب خلفها بعناية، وخرجت إلى نور شمس بعد ظهر ذلك اليوم.

تقدم الرجل نحوها مبتسماً. «حسناً، يا سعاد، أنت لم تهربي مني هذه المرة»، حيّاها.

احمرت سعاد خجلاً. «أنا آسفة حول الليلة الماضية»، قالت بصوت منخفض. «لقد كنت خجولة».

«لا نستطيع التحدث هنا». نظر حوله بإعياء. «هل هناك مكان نستطيع الذهاب إليه؟»

«إذا أحببت يمكننا أن نسير إلى الحديقة»، اقترحت سعاد. «هناك مقاعد تحت الأشجار، والمكان عادةً مهجور في هذا الوقت من النهار».

«حسناً، سنذهب إلى الحديقة إذن».

وفيما كانا يسيران في الطريق، تحدث الرجل بسهولة إلى سعاد، وأخبرها عن انطباعاته حول جمال المنطقة، والنهر الوارف الظلال وخلفه الجبال المكسوة بالثلوج، وراح يقارنها ببلده التي تركها منذ خمس سنوات والتي يأمل في العودة إليها في بداية العام القادم؛

كانت قد عرفت بأنه مهندس مرتبط في العمل على بناء الجسر الجديد فوق النهر، وأن دوره في العمل سينتهي

قريباً وأنه سينتقل إلى مشروع جديد في جزيرة الشمال.

«كيف استطعت ترك عملك في هذه الساعة من النهار؟» أرادت سعاد أن تعرف.

«إجازة خاصة لعمل هام جداً،» أخبرها وهو يبتسم، وكان يفتح البوابة المؤدية إلى الحديقة.

كانت الأشجار عارية وخالية من الأوراق، لكن أشجار الصنوبر في الخلف صنعت حزاماً من الخضرة. الشمس الغائبة كانت لا تزال مسلطة على المقعد تحت الأشجار، لكن الهواء كان بارداً، وقد فرحت سعاد بمعطفها. كنَس ابراهيم بعض الأوراق الجافة عن المقعد وجلسا.

عرفت سعاد الآن أن الوقت قد حان لتقديم اعتذارها. لكن ماذا عساها أن تقول؟ بتلعثم بدأت: «أنظر، يا سيد ابراهيم. . .».

مال نحوها ولمس كتفها، «أرجوك، يا سعاد، لا تناديني سيد. ناديني ابراهيم فقط، مثلما يفعل أصدقائي».

بدأت من جديد: «إذن أرجوك، يا ابراهيم، أن تسامحني على توريطك في ذلك المشهد الرهيب الليلة الماضية. لقد كنت خجلة لأواجهك بعد ذلك، لذا هربت. كان عملاً جباناً. ماذا ستظنني؟» عضت شفتها للذكرى المميتة، ونظرت إلى العشب عند قدميها.

بلطف وضع أصابعه تحت ذقنها ورفع وجهها حتى

التقت عيناها بعينيه. «لا تهتمي كثيراً، يا عزيزتي. إنني لا ألومك. في الحقيقة»، قهقه، «لقد متعت نفسي، لأنني شفيت غليلي بضرب هذا الجمال المتعجرف».

وبدون أن تدري أمسكت يده. «إنني آسفة. لقد آذيتك»

«إنها ندوب الحرب المشرّفة»، ابتسم. «والآن أخبريني القصة. هل كنت متجاوزاً؟ هل أستحق كل هذا؟» وأشار إلى الجرح تحت عينه. «هل كنت أنت وجمال هذا مخطوبان؟».

«لا. لا، لم نكن مخطوبين».

«لكن أكان لديكما ـ ما تسمونه ـ تفاهماً؟»

«نعم، حسناً، أعتقد ذلك. كيف يمكنني أن أفسّر ذلك؟ لقد كنا نخرج معاً لمدة ستة أشهر، وأعتقد أن كلينا فكرنا بأننا سنتزوج يوماً ما. لكن لم يكن هناك شيء مؤكد. ولا خطبة».

«لكنه كان يكن لك عاطفة قوية؟» قال متسائلاً.

«أعتقد ذلك».

«وأنت، يا سعادي؟ هل كنت تكنين له عاطفة جياشة؟»

ارتعشت. إنه لا يدري ما فعله بها عندما ناداها «يا سعادي» بمثل هذه الطريقة الودودة. بكل جهد، أبقت

عقلها على السؤال الذي سأله، وحاولت أن تجيب بكل صدق وأمانة.

«حسناً، نعم، أعتقد ذلك، لكن الليلة الماضية، حتى قبل أن ألقاك»، بدأت تقول، غير مدركة تماماً للتوريط الذي تحويه تلك الكلمات البسيطة، «عرفت أنني لم أعد أكن له أية عاطفة. لقد فتحت عينيّ. لا جدوى من الدخول في التفاصيل، لكنني لم أوافق على بعض الأعمال التي قام بها. من المحتمل أنه اعتقد أن باستطاعته التحدث معي ثانية، لكنني عرفت بكل تأكيد أن كل ما بيننا قد انتهى إلى غير رجعة».

«لقد فهمت». خيم صوت طويل. «ورغم كل ذلك هربت مني. لماذا؟».

«أوه، يا ابراهيم، ألا ترى؟ لقد كنت خجولة، وأشعر بالإذلال. فقط لأنك رقصت مع فتاة ودعوتها على العشاء، ماذا يمكنك أن تعتقد عندما يأتي صديقها السابق ويقاتلك بتلك الطريقة المشينة؟ لقد كنت مرتبكة لأن جمال قد ورطك في عراك، وأنت المتفرج البريء تماماً».

«لكن هل كنت أنا حقاً المتفرج البريء، تماماً؟».

دق قلبها، ونظرت سعاد إليه. لكن أن تبتسم، لكن عيناه العسليتين التقتا بعينيها، ولم تستطع أن تدير وجهها.

«أنت تعلمين أنني أكن لك عاطفة جياشة، يا

عزيزتي»، قال بنعومة.

أوشكت الشمس على المغيب، وفي تلك اللحظة عرفت سعاد أنها تهيم به.

بالطبع، كان ذلك مستحيلاً. بالأمس كانت تكن عاطفة قوية تجاه جمال، ورغم ذلك هي هنا تتخيل نفسها تكن عاطفة جياشة تجاه ابراهيم، رجل من بلد بعيد، رجل عرفته في أقل من أربع وعشرين ساعة.

وضع ذراعيه على خصرها، لكنها لاهثة، أبعدت يديه ووقفت على قدميها. «هذا جنون، يا ابراهيم. لست أدري ماذا حدث لي». بدت ضائعة ومهجورة، فربت على ذراعها مطمئناً وحاول أن يعانقها.

«لا، يا ابراهيم، أرجوك»، توسلت إليه. «يجب أن أذهب. ستعجب السيدة فواز لتأخري».

أطلقها بإصرار، وكل الطريق كانت سعاد مدركة لدقات قلبها المتسارعة. لقد وجدت أن من المستحيل عليها أن تفكر بترابط، وكانت الإنفعالات العاطفية قوية وعنيفة.

«هل يمكنني أن أراك الليلة، يا سعاد؟» قال متوسلاً عندما وصلا إلى البوابة.

ترددت سعاد. ليس هناك مكان خاص في بيت الشقق، رغم أن السيدة فواز ترحب بأي ضيف يحضر إلى بيتها. لكنها لا تعتقد أن ابراهيم يفكر في التحدث إليها بين

جمهور من الغرباء.

وفيما كانت هي مترددة قال: «أليست هناك سينما في القاعة ليالي الخميس؟»

«نعم، لكن. . .»

«لكن ماذا، يا سعاد؟ ألا تريدين الخروج معي؟»

«ليس الأمر كذلك». نظرت الفتاة إليه بانزعاج. «لكنني فقط خائفة من حضور جمال إلى هناك».

«يعني أنه قد يسبب مشكلة أخرى. إنني أكره أن يورطك في عراك جديد». أضافت تقول.

«ولماذا أنت خائفة من جمال؟ أوه، يا سعاد، إنني أستطيع أن أحميك، على كل حال»، قال بضحكة خافتة: «لا أعتقد بأن جمال يمكن أن يظهر أمام الجمهور بعينه المصابة. سأتصل بك عند الثامنة إلا ربعاً، إذن». أضاف ابراهيم وهو يشد على يدها. . .

«أهلاً، يا سعاد، لقد تأخرت الليلة. لقد كنا على وشك تقديم الوجبة»، حيتها السيدة فواز وهي تدخل. «هل كان لديك عمل كثير في مكتب البريد؟»

«لا، فقط حديث»، ردت سعاد باختصار. «سأبدل ثيابي وأكون معك».

علقت معطفها على المشجب، ومسحت خديها

الحمراوين بالبودرة بسرعة، وهي تدرك أن عينيها تومضان بالإثارة.

جلست في مكانها على المائدة بجانب سهام. ألقت الفتاة إليها بنظرة ثاقبة لكنها لم تقل شيئاً، وفي غمرة الحديث العام بدا أن أحداً لم يلاحظ صمتها.

وفيما كانوا يغسلون الأطباق، تساءلت السيدة فواز إذا كانت إحدى الفتاتين ستخرج، أم إذا كانتا تنويان النوم باكراً بعد سهرة الليلة الماضية.

«رامز وأنا سنذهب إلى السينما»، قالت سهام. «وماذا بالنسبة لك يا سعاد؟»

«نعم، إنني ذاهبة إلى السينما، أيضاً. اريد ان أشاهد هذا الفيلم منذ زمن. هناك تعليقات جيدة عنه في الصحف، وكذلك قالت صديقاتي بأنه يجب أن لا أفوت هذه الفرصة». عرفت سعاد أنها كانت تبالغ حول الفيلم لئلا تنهال عليها الأسئلة.

ليس لأنها تكترث لمعرفتهما بخروجها مع ابراهيم، وبالطبع فإنهما سرعان ما ستعرفان على أي حال، لأنه في مدينة صغيرة كل فرد سيعرف بأسرع ما يتوقع، لكنها تشعر بالخجل والإرتباك عند ذكر ابراهيم».

كانت سعاد مستعدة وتراقب من النافذة عندما دخل ابراهيم من البوابة، وكانت عند الباب للقائه قبل أن يدق الجرس.

«مساء الخير، يا سعاد. تبدين جميلة، يا حلوتي». أمسك بيدها وخرجا إلى الطريق باتجاه القاعة.

في القاعة المظلمة جلسا جنباً إلى جنب، والفيلم الذي اعترفت بأنها متشوقة لرؤيته مر أمام عينيها في حركات متسلسلة لم تترك انطباعاً في ذهنها. كان عقلها مشغولاً بالرجل الذي يجلس إلى جانبها ويده على يدها.

وعند انتهاء الفيلم تسلّلا خارجين بسرعة بين الجمهور. وعندما وصلا إلى البوابة قال: «هذا مكان عام. أليس هناك من مكان منعزل يمكننا التحدث فيه لفترة؟»

قالت سعاد: «هناك بيت صيفي صغير في مؤخرة الحديقة».

اجتازا العشب المغطى بالثلج، ودخلا المأوى المتهدم نوعاً ما. قال ابراهيم: «يا سعاد، يا حلوتي، وضمها إليه».

جلسا معاً على مقعد منخفض، وقال الرجل بجدية: «حسناً، يا سعاد، آمل أن يوافق والديك عليّ».

قالت بإغماء: «أمي وأبي؟»

أطرق برأسه. «متى يمكنني أن أقابلهما؟ غداً؟»

كان عليها أن تخبره بأنها لا تستطيع رؤيته في نهاية الأسبوع لأن والديها سيحضران لأخذها بعد العمل إلى

البيت، لكن بدا واضحاً بأنه لن يسمح لأية عشبة بأن تنبت تحت قدميه.

ردت سعاد بسرعة: «لا! لا! ليس بهذه السرعة».

«لكن لماذا، يا سعادي؟ يجب أن أقابلهما بأسرع ما يمكن أريدك أن تقابلي عائلتي، أيضاً، لكن لسوء الحظ هذا غير ممكن الآن. عندما نتزوج سآخذك إلى تونس لنعيش في أملاك والدي. عنده كرمة كبيرة، وستقيمين هناك عندما أعود إلى عملي على الجسر، لكنني دائماً سأسرع في العودة عند إنجاز العمل».

«لكنني، يا ابراهيم، لن أبقى هناك. سأعود معك». قالت محتجة.

«في البداية، يا عزيزتي، ستعودين معي، لكن عندما يأتي أطفالنا، عندئذٍ يجب أن تبقي معهم».

في الظلام، احمر خدا سعاد. كم يبدو هذا جميلاً من رجل التقته فقط لتوها. قالت بصوت خافت: «بالطبع يجب أن تلتقي عائلتي، يا ابراهيم، فقط اعطني بعض الوقت لأهيء لك الجو. إنني لا أستطيع أن آخذك إليهم غداً بدون سابق إنذار».

بعد إلحاح، وافق، لكنه أضاف: «لكن يجب أن يتم ذلك بسرعة، يا سُعادي. فقط بعد بضعة أسابيع سينتهي عملي هنا وسيكون عليّ الذهاب إلى الجزيرة الأخرى.

إننا لا نستطيع إضاعة بضعة أسابيع ثمينة من وقتنا».

وعدت سعاد باتخاذ الترتيبات للقاء والديها في أسرع وقت ممكن، لكن قلبها هبط لهذا الأمل. إنها تعلم بأنه سيكون من الصعب عليها أن تشرح وضع إبراهيم لوالديها.

وبالفعل، فقد صدم والديها عندما أخبرتهما سعاد أنها قطعت علاقتها مع جمال وأنها تريد أن تقدم صديقها الجديد إليهما. لقد خافا كثيراً عندما كشفت لهما أن ابراهيم هو تونسي، وقد رفضا حتى فكرة لقائه.

عند خروجها من مكتب البريد بعد انتهاء عملها يوم الخميس من الأسبوع التالي، فوجئت بجمال ينتظرها. إنها لم تشاهده منذ ليلة الحفلة، وقد صدمت للتغيير الذي طرأ عليه. لقد بدا ضعيفاً وشفافاً، وعيناه تومضان.

«أهلاً، يا جمال، كيف حالك؟» حاولت سعاد أن تبقي صوتها عادياً.

«أريد التحدث معك، يا سعاد».

«حسنا، إنني في طريقي إلى البيت لتناول الشاي. ماذا تريد؟»

«لا نستطيع التحدث هنا. معي سيارتي». وأشار إلى الجانب الآخر من الطريق حيث كانت سيارته تقف عند المنعطف. «هل تذهبين معي في سيارتي؟»

هزت رأسها بحزم. «لا، يا جمال، ليس هناك ما نقوله، أليس كذلك؟ إنني آسفة لينتهي ما بيننا هكذا، لكن الوقت متأخر جداً الآن».

نظر إليها، ثم قال بمرارة: «وهل ما زلت تخرجين مع ذلك الأجنبي؟»

«إنني أخرج مع ابراهيم عندما أريد، رغم أنني لا أستطيع ان أرى بأن هذا يعنيك»، أجابت الفتاة بكبرياء.

«لكن يا سعاد، لا يمكنك ذلك. أنت لي». توقدت عيناه في عينيها، فنظرت بسرعة بعيداً، وهي عاجزة عن تحمل الألم الذي كان فيهما.

بصبر قالت: «يا جمال، هذا لا يجوز. إنني لم أكن لك وأنت تعرف ذلك. لقد كنا صديقين، وأنا راغبة في أن نظل صديقين، وهذا كل شيء».

«صديقين!» ارتعش صوته من الحنق والغضب. «يا سعاد، إنك لن تتزوجي ذلك الأجنبي. أبداً! هل تسمعينني؟» ارتفع صوته، ورغم أنها ارتعشت أمام حدة نظراته، أرغمت نفسها لتقول بهدوء: «سأتزوج ممن أشاء. لا علاقة لك بذلك. وداعاً».

أمسك ذراعها بخشونة وهي تستدير. «هكذا إذن؟ هذا ما تعتقدين. سترين».

متجاهلة التهديد في لهجته، أطلقت ذراعها وسارت

بسرعة مبتعدة عنه، وهي تشعر بالغضب والخوف. هذا ليس عدلاً من جانبه لخلق هذا الإزعاج. فتيات أخريات انفصلن عن شباب كن يخرجن معهم لستة أشهر أو أكثر، والشباب تقبلوا ذلك بدون توجيه كل تلك التهم.

هل كان ابراهيم هو السبب الحقيقي لمرارته؟ ربما فكرة هزيمته على يدي ذلك الرجل، ليلة العراك خارج قاعة الرقص، كانت تعقر جنبه إلى أقصى حد، لكن على كل حال، هو الذي بدأ بالعراك. تلك لم تكن غلطة ابراهيم.

بعد الشاي، حضر ابراهيم ليأخذ الفتاة إلى السينما، لكن طول المساء، ذكرى تهديدات جمال والتوتر الظاهر على وجهه حالت بينها وبين الشاشة.

فقط عندما أصبحت لوحدها مع ابراهيم في البيت الصيفي في الحديقة، تمكنت من طرد ذلك الرجل من مخيلتها.

هذه الليلة قال ابراهيم: «يا سعاد، إن عملي هنا سينتهي في خلال ثلاثة أسابيع، يجب أن تلحّي على والديك لمقابلتي في نهاية هذا الأسبوع. الوقت أمامنا قصير لوضع خططنا. إشرحي لهما أهمية ذلك بالنسبة إلينا».

وعدته سعاد، رغم أنها شعرت باليأس من عناد والديها عندما حاولت إقناعهما بأهمية ابراهيم بالنسبة إليها. هذه

المرة على الأقل يجب أن يوافقا على لقاء ابراهيم وسماع أقواله حول الموضوع. أخيراً قالت: «يجب أن أدخل، يا ابراهيم. إن الوقت متأخر جداً».

«كيف يمكنني أن أدعك تذهبين؟ في كل مرة تذهبين فيها أشعر كأن روحي تتمزق وتخرج من جسدي».

«أوه، يا ابراهيم، هل أنت تشعر هكذا، أيضاً؟» نظرت إلى عينيه الداكنتين، وعرفت بتأكيد مطلق لو أن والديها أصرا على رفضهما العنيد للقاء هذا الرجل، فإنها ستهرب معه. وعندما يتزوجان بأمان، سيضطر والداها على القبول به.

عندما أطلقها وهو يتنهد، عرفت لحظة من الخوف وهي تهمس بسرعة: «يا ابراهيم، هناك شخص ما يقف هناك».

نظر في ظلمة الشجيرات التي تواجه المبنى. «هراء، يا عزيزتي. أنت تتخيلين الأشياء».

نظرا معاً داخل الحديقة، لكن بدت أنها خالية ومهجورة. «هل هناك أحد؟» صرخ الرجل بحدة، لكن كان هناك صمت. «حسناً، يا سعاد. ربما دجاجة برية عبرت فأرعبتك».

تمسكت به وصرخت: «ابراهيم، يا عزيزي، أعتقد أنه قد يكون جمال».

«لكن لماذا تعتقدين أنه قد يكون جمال؟»

روت له قصة لقائها معه خارج مكتب البريد، ومرارته والتهديدات التي أطلقها. «يا سعادي المسكينة»، ابتسم برقة، «ألا تعتقدين بأنني قادر على التعامل مع هذا الرجل الغيور؟ لقد أخبرتك من قبل، بأنني لن أكتفي إلا بتسويد عينه الثانية إذا كان ذلك ضرورياً. أرجو أن لا تقلقي يا فتاتي الجميلة». لثم يدها وقال مؤكداً: «إن مهمتك، يا حلوتي، هي في أن تقنعي عائلتك العنيدة بأنني الشخص المناسب الذي يؤتمن على سعادة ابنتهما. هل ستفعلين ذلك من أجلي، وتنسين جمال الأسود؟»

أطرقت برأسها، وسارا في طريقهما على العشب تحت ضوء القمر. عند المدخل راقبته وهو يسير بسرعة عبر الممر ويخرج من البوابة، واستدارت، وهي تغلقها، لتلوح له بيدها مودعة.

الفصل الرابع

كانت سعاد لا تزال نائمة في صباح اليوم التالي عندما كانت هناك طرقة مفاجئة عاجلة على الباب. «أوه، لم يطلع الصباح بعد»، تمتمت الفتاة الناعسة عندما دخلت السيدة فواز وهزتها من كتفها بلطف. فتحت عينيها، وحالاً صدمت من الملامح البادية على وجه المرأة الأخرى. جلست مذعورة، ومتعجبة! «ماذا؟ هل حدث شيء! هل هو ابراهيم؟»

«سعاد، عزيزتي، كان من المفروض أن أخبرك بلطف، لكن لم تعد هناك حاجة لذلك اللطف. لقد وقع حادث مخيف».

«ابراهيم؟»

«ابراهيم وجمال كلاهما قتلا».

وضعت ذراعها على كتف الفتاة، لكن الفتاة أبعدتها عنها بخشونة. «لا! ليس صحيحاً. إنني لا أصدق». ونظرت إلى المرأة في ذهول.

هزت السيدة فواز برأسها بأسف، وهي متشوقة لتريح الفتاة، لكنها عرفت بأنه لا توجد طريقة يمكنها أن تخفف من هول الضربة.

قالت سعاد بصوت خافت: «ماذا حدث؟» تيبست شفتاها وكان من الصعب عليها النطق. بالكلمات، لكنها في قلبها عرفت بأن ذلك لم يعد يهم على أي حال.

قالت السيدة فواز بهدوء: «انطلقا معاً في سيارة جمال، التي انطلقت إلى نهاية الجسر الجديد الذي لم يكتمل ووقعا في النهر. كانا ميتين عندما أخرجهما الرجال».

«لكن ابراهيم لا يمكن أن يكون في سيارة جمال!» قالت سعاد، وهي تعلم أن الكابوس غير معقول؛ ولا حتى حقيقة موت ابراهيم، ولا حقيقة جلوسها في الفراش تريد أن تسأل أسئلة بدون جواب.

بلطف قالت المرأة الكبيرة: «لقد كنت في السينما الليلة الماضية مع ابراهيم، أليس كذلك؟» أطرقت الفتاة برأسها.

«متى عدت؟» أرادت السيدة فواز أن تعرف.

نظرت سعاد حولها بغموض، وتركزت عيناها على الساعة الصغيرة بجانب سريرها. تذكرت بوضوح أنها كانت الثانية عشرة وعشر دقائق عندما رفعتها لتعبئها، لأنها دهشت كيف انقضى الوقت بسرعة وهي مع ابراهيم.

أخبرت المرأة الكبيرة، التي أطرقت موافقة. «حسناً، من الواضح أن جمال شاهد ابراهيم على الطريق فاقترح أن يوصله إلى المخيم عند النهر». لم تنظر إلى الفتاة وهي

تتابع. «عندما وصلا قرب الجسر، يبدو أنه أخذ المنعطف الخطأ، وبدلاً من السير على الجسر القديم، سار على متاريس الجسر الجديد ووقعا في النهر. إنه عميق جداً الآن. الرجال في المخيم سمعوا الإرتطام وحضروا للنجدة، لكن بعد فوات الأوان».

«لكن من غير المعقول أن يقوم جمال بإيصال ابراهيم إلى المخيم»، قالت سعاد بتأكيد. «إنه يكرهه».

جلست السيدة فواز على حافة السرير وقالت بهدوء: «يا سعاد، إنني أعرف بأن هذا سيكون صدمة قاسية عليك، لكن يجب أن أحذرك قبل أن تبدأ الشرطة في الإستجواب».

«الشرطة؟» كررت الفتاة بغباء.

«نعم. الشرطي خالد هنا. لقد أرسلني لكي أعلمك بالنبأ، وهو يريد أن يوجه إليك بعض الأسئلة».

«يوجه لي بعض الأسئلة؟ لماذا؟»

«أوه، هذه أشياء روتينية ـ في أي وقت تركك إبراهيم، وهلم جرا»، أخبرتها المرأة بتعقل: «كل هذا بصورة مباشرة، لكن أرجو أن تتذكري هذا، يا سعاد ـ» قالت ببطء، وهي تحاول الوصول إلى عقل الفتاة المليء بالضباب. «لصالحك، ولصالح ذكرى الرجلين، لا تقولي شيئاً حول خصامهما، أو عن تهديدات جمال».

قالت سعاد: «أنت تعلمين أن جمال قتل ابراهيم وانتحر، أليس كذلك؟ إنه بكل وضوح قاد نفسه وابراهيم إلى النهر، انتقاماً، لأنني أكن عاطفة جياشة لابراهيم». أبعدت احتجاجات السيدة فواز، ووضعت رأسها على الوسادة علامة الهزيمة. «بالطبع هذا صحيح. لقد هدد، لكنني لم أصدق بأنه سيفعل شيئاً إنها غلطتي. لقد قتلت الرجل الذي أهيم به».

الآن الألم، الذي كتمته طويلاً، وصلها، وبصرخة متألمة صاحت «ابراهيم! ابراهيم!» أدارت رأسها على الوسادة وبكت بحرقة.

راقبتها المرأة بعطف بضع دقائق، ثم خرجت لتخبر الشرطي المنتظر أن سعاد منزعجة بشكل رهيب من هول الصدمة لفقد صديقها بهذه الصورة المأساوية، لكنها ستخرج في أقرب وقت ممكن.

الشرطي خالد، الذي عرف الفتاة جيداً بسبب عملها في مكتب البريد، كان متفهماً تماماً. هناك فقط عدة أسئلة روتينية يريد أن يسألها، وليس في عجلة من أمره، وسيعود خلال النهار.

بالنسبة للفتاة المحطمة القلب مرت بقية اليوم في ذهول غير حقيقي. أجابت على أسئلة الشرطي بصورة آلية. نعم، لقد غادرها ابراهيم بعد منتصف الليل بقليل. لا، هي لم تشاهد جمال أو سيارته على الطريق عندما غادر

الرجل الآخر، رغم أنها تحدثت معه خارج مكتب البريد في وقت مبكر. نعم، لقد كان ابراهيم سائراً عندما غادر منزل الشقق، وكان من المتوقع أن يعود سيراً على قدميه إلى المخيم.

قال الشرطي بلطف: «لقد كانت هذه صدمة رهيبة لك، يا سعاد، لأنك تعرفين الرجلين جيداً. لقد كان حادثاً تعيساً، لكن يبدو أن جمال قد أمضى ساعة في الفندق، وقد دهش رجل البار لأن جمال معتدل في شرابه عادةً، ويلازم على شرب الجعة، لكنه في الليلة الماضية شرب الويسكي، وعندما خرج حمل معه زجاجة كاملة.

هزت سعاد رأسها بخمول، وتذكرت الرجل ذو العينين الغائرتين الذي قابلها خارج مكتب البريد وهددها بعنف بأن لا تتزوج من ابراهيم. لم تصدق بأنه سيذهب إلى هذا الحد للتأكد من عدم زواجها منه.

تابع الشرطي حديثه: «لا أحد يعلم أين كان جمال أو ماذا كان يفعل بين الساعة السادسة ومنتصف الليل. إنه لم يعد إلى المزرعة، وقد اعتقد السيد وليد أنه من المحتمل أن يكون قد بقي للذهاب إلى السينما، لكننا لغاية الآن لم نجد شخصاً رآه هناك. يبدو أن الويسكي الذي شربه قد أثر على قيادته، واصطدم بالمتاريس، ولم يستطع التحكم بالسيارة، وسقط في النهر. إنها غلطة كلفت شابين جميلين حياتهما»، أنهى حديثه بعطف.

عرفت سعاد أنها لا تستطيع الإستمرار في العمل. لقد تحطمت حياتها عند قدميها. يبدو أنه ليس هناك ماضي أو مستقبل، فقط حاضر مروع. عندما والديها، سمعا بالحادث بعد وقوعه، طلبا منها العودة إلى البيت، فقبلت شاكرة.

مرت الأشهر التالية بالنسبة لسعاد في سلسلة من أيام، وساعات، ودقائق كانت بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة. كان الوقت مجرد نهوض في الصباح، والمساعدة في أعمال البيت، والجلوس ساعات طويلة تحدق في الفضاء، تجيب من يتحدث معها، وتنام من جديد. لا شيء له أي معنى.

ذهلت بعد ظهر ذات يوم عندما قالت لها والدتها بلطف: «ماذا ستفعلين في حياتك، يا سعاد؟».

كانتا جالستين على الفيراندا، متظللتين من وهج شمس الصيف بعريشة كثيفة. جلست سعاد صامتة، ويداها بخمول تقلب صفحات مجلة فيما كانت والدتها تشغل نفسها بالرتق الأسبوعي.

هزت سعاد رأسها بغموض، لكن والدتها قالت: «أنت لم تبلغي العشرين. لا يمكنك أن تضيعي حياتك هدراً مثلما كنت تفعلين في الأشهر القليلة الماضية. ماذا تحبين أن تفعلي؟»

نظرت سعاد إلى البعيد. شبه واعية عرفت أنها لا تستطيع البقاء هكذا منذ المأساة، لكنها لم تكن مستعدة للبدء في وضع الخطط. كل شيء أصبح لا معنى له.

«هل تحبين العودة إلى مكتب البريد؟» سألتها والدتها.

صدمت الفتاة وقالت: «لا! أوه لا! لا أستطيع العودة».

«حسناً، هل تفضلين البقاء هنا في المزرعة؟ إن جميلة مستعدة للخروج والحصول على عمل وتعملين مكانها في المزرعة إذا كنت تريدين ذلك. لكنك لست سعيدة هنا، أليس كذلك؟»

بصوت منخفض ردت الفتاة: «لن أكون سعيدة في أي مكان».

نظرت إليها والدتها بتفكير. لقد كانت قلقة حول مأساة ابنتها المستمرة، وعرفت أن إبقاءها في البيت، في عزلة المزرعة، ليس جواباً لمشكلة سعاد. يجب، إذا اقتضت الضرورة، إخراجها إلى العالم الخارجي ثانية لكي توصل الخيوط المقطعة وتبدأ من جديد. لا أحد يستطيع العيش في الماضي إلى الأبد.

«حسناً، دعيني أقدم لك طريقاً آخر». وواصلت الأم بصبر. «هذا النوع من الحياة لا يروق لك، أليس كذلك؟ جميلة تحب البقاء في المزرعة، لتحلب البقر، وترعى الدجاج، وتهتم بالخراف، والعمل في البستان. من

الواضح أننا لا نستطيع الإحتفاظ بكما في البيت إلى ما لا نهاية، فهل أنت مستعدة لتسلم كل هذه المهام وتقنعي بحياة المزرعة، فيما جميلة تبحث عن عمل في مكان آخر؟»

هزت سعاد رأسها. «أنا لا أنفع مع الحيوانات»، اعترفت. «لا. اتركي جميلة في البيت. سأفتش عن شيء آخر».

قالت والدتها بصوت عادي: «هل فكرت في العمل في حقل التمريض؟»

استدارت سعاد لتنظر إليها. «التمريض؟»

«نعم. فالمستشفيات بحاجة ماسة للممرضات، حسبما تقول الصحف، وفي عمل كهذا، ستشعرين بأنك تقومين بعمل ما لمساعدة الآخرين».

عبرت سعاد عن رغبتها في البدء على التدرب كممرضة، لكن شرطها الوحيد كان العمل في مستشفى يكون بعيداً عن محيطها الحالي.

أبدى والداها استعدادهما على الموافقة، وقد شعرا أنها في محيطها الجديد، بين غرباء لا يعرفون شيئاً عن مأساتها وعن سعادتها المحطمة، وأن تقوم بعلم مختلف، فإنها قد تجد الأمان وتتمكن من التغلب على صدمتها ويأسها الحالي.

إن سعاد، المحظوظة، السعيدة، القديمة ستستمتع بالمرح عند سفرها إلى المدينة الكبيرة، حيث ستبدأ تدريبها، لكن بالنسبة لسعاد اليوم، فقد كان شيئاً عليها القيام به لتبدأ مسيرة حياتها الجديدة.

وصلت إلى المستشفى، واستقرت فيه، ضمن مجموعة كبيرة من الممرضات.

سرعان ما تعلمت سعاد أن تكون ممرضة تلميذة جيدة، قديرة، جديرة بالثقة، وراغبة، بعكس سعاد القديمة، الثائرة. تعالت عن الفتيات الأخريات اللواتي اعتبرنها غير أليفة.

شاركتها غرفتها فتاة بنفس سنها، هي سوسن القصيرة، ذات النمش، والطبيعة الجيدة. في البداية حاولت الفتاة الأخرى أن تقنع سعاد بالإنضمام إليها وإلى صديقاتها في نشاطاتهن المختلفة، لكن سرعان ما استسلمت وتركتها لوحدها، وهي تعجب من سبب اختيارها مهنة التمريض فيما بدا واضحاً أنها غير اجتماعية.

لكن مع مرور الأشهر، وجدت سعاد نفسها تستمتع بالعمل. سارت سيراً حسناً مع المرضى، الذين اكتشفوا أن هذه الفتاة الحزينة، الهادئة كانت دائماً مستعدة للقيام بأعمال إضافية لهم بخلق حسن وبدون اندفاع لأن ساعات عملها قد انتهت.

لم يعرفوا أنها كانت تخاف من ساعات فراغها. عندما تكون سعاد منهمكة بمشاكل المرضى، استطاعت أن تحافظ على رصانتها، لكن عندما تبتعد عن المستشفى تجد أن الوقت يمضي ببطء.

وضعت كل قلبها وروحها في العمل الذي اختارته، آملة أن تتمكن من التغلب على تعاستها. وفي الوقت الذي مضى على وجودها في المستشفى سنة كاملة، نسيت تقريباً أنه كانت لها حياة أخرى.

أمضت سعاد إجازتها السنوية الأولى قسماً منها في البيت والقسم الآخر - لأنها ما زالت مغرمة بهن - مع صديقاتها القديمات، لكنها فرحت عندما حان موعد عودتها إلى المستشفى.

ذهبت رأساً إلى الوظيفة الليلية. ذات مساء، عندما كانت تعد لنفسها عشاء في المطبخ، أدخل الطبيب فارس رأسه من الباب. «مساء الخير، أيتها الممرضة سعاد. هل هناك فرصة للإنضمام إليك لتناول كوب من الشاي؟» سألها.

«بكل تأكيد، يا دكتور فارس»، قالت سعاد وهي تهرع لتحضر كوباً وصحناً من الخزانة. وضعت بعض البسكويت في طبق، وصبّت الشاي، وناولته له، وهي تدفع بالسكر إلى متناول يده.

كيف استمتعت بإجازتك، أيتها الممرضة؟» سألها وهو يضع ملعقتين من السكر في كوبه ويحرك بقوة.

فوجئت لتعلم بأنه كان مدركاً أنها كانت في إجازة، لكنها تمتمت بأنها كانت جميلة جداً.

نظر إليها بغموض وهو يعلق: «لا تبدين متحمسة كثيراً».

تغير لون سعاد. «أوه، أنا آسفة. بالطبع لقد استمتعت بها».

«إلى أين ذهبت؟»

دفعت طبق البسكويت نحوه، وقالت بغموض: «في البيت».

«وأين هو البيت؟»

«في الجزيرة الجنوبية».

«هل أهلك يعيشون في المدينة؟»

«لا. في مزرعة على بعد أميال».

«أوه. لقد عشت في مزرعة عندما كنت طفلاً. إنه لجميل أن يعيش المرء في الريف بعد دخان المدينة. ألم تكرهي العودة إلى العمل؟»

«لا. هل تريد كوباً آخر من الشاي؟»

«شكراً. أريد كوباً آخر». جرع آخر قطرة في كوبه وناوله لها لملئه. «هل تحبين التمريض؟» سألها بإصرار.

أطرقت برأسها، وصبّت له كوباً آخر وأعادته إليه. «ما الذي حدا بك للمجيء إلى هنا للتدريب؟» أراد أن يعرف. «هناك العديد من مستشفيات التدريب في الجزيرة الجنوبية».

«أوه، لم أكن أعلم». وقفت سعاد، وأخذت كوبها الفارغ إلى المغسلة، وفتحت الحنفية. «إن علي الذهاب لرؤية إذا كان كل شيء على ما يرام في الجناح»، قالت له.

اتجه إلى المغسلة، وألقى عليها نظرة منحرفة، وقال لها: «أنت من النوع الذي لا يدلي برأيه بصراحة، أليس كذلك؟»

توقفت سعاد عند المدخل. «أنا آسفة...»

قهقه فجأة. «لا بأس. فقط قولي: هذا لا يعنيك، يا دكتور، سواء استمتعت بإجازتي أم لم استمتع، أو اين قضيتها».

«أوه، إنني لم أقصد بأن أكون وقحة!» قالت سعاد وقد احمر وجهها من الإرتباك.

ربّت على كتفها. «لا بأس، أيتها الممرضة سعاد. إنني

لست حشرياً، كما تعلمين. إنني مهتم حقاً، رغم انه يتوجب عليّ أن أعترف بأنك لم تشجعيني. هل قمت بأي نوع من الحشرية؟»

فوجئت تماماً، تمتمت سعاد: «إنني أعلم بأنك كنت لطيفاً. إنني أقدر هذا اللطف. لكنني أعلم بأن أموري لا تهمك. إنني آسفة لأنني من النوع الذي يصعب التحدث معه».

هز رأسه ودفعها بلطف عبر الباب. «إنسي الموضوع، يا سعاد. شكراً على الشاي. تصبحين على خير».

سار نحو الرواق، بدون أن يلتفت، ونظرت سعاد خلفه، وقد أدركت أن قلبها كان يدق. أحست سعاد بفارس كرجل، وكرجل جذاب.

كلما التقته خلال الأسابيع التالية تتورد خجلاً وتتجنب النظرة الغامضة في عينيه. غضبت من قدرته على إخراجها عن رصانتها. في السابق، في المستشفى، شعرت نفسها آمنة من أية عناصر مزعجة في علاقاتها مع الجنس الآخر. الآن لم تعد متأكدة. وجدت أنه يستحيل عليها أن تبعد عن ذهنها المواجهة غير المتوقعة.

وفيما كانت تقوم بمهامها، غضبت عندما أدركت أنها عن وعي أو بدون وعي، كانت تراقبه كل الوقت، وأن اليوم يبدو طويلاً عندما لا يظهر.

عادةً عندما يلتقيان، كان يحدثها فقط عن الأمور المتعلقة بعملهما، لكن بعد ظهر ذات يوم التقاها وهي تتجه نحو الرواق لتخرج في إجازتها اليومية.

«ماذا تفعلين في ساعات إجازتك، أيتها الممرضة سعاد؟» سألها.

«أوه، لست أدري. أشياء مختلفة». عرفت سعاد أنها قد تبدو حمقاء وبلهاء، لكن السؤال فاجأها.

«حسنا، ماذا تنوين أن تفعلي اليوم، على سبيل المثال؟»

نظرت بغموض عبر النافذة، لترى شمس الصيف تتوهج نحو الغروب فقالت: «من المحتمل أن أخرج للسباحة في أحد الخلجان».

«حسناً. هذا ما أنوي القيام به. سألتقيك عند البوابة بعد نصف ساعة».

قبل أن تتمكن الفتاة المذهولة من الإجابة، سار عبر الرواق وبقيت وحيدة.

ببطء دخلت غرفتها، ونظرت إلى نفسها في المرآة. «لن أذهب»، قالت بنعومة وحزم. «إنني بكل تأكيد لن أتورط في شيء ما ليست له نهاية مرضية. إنني أعلم بأنني لا أستطيع أن أهيم بأحد ثانية، وعلاوة على ذلك، إذا كان فارس قد عرف الحقيقة فإنه لن يطلب مني الخروج معه.

أنت قاتلة يا سعاد، ولا يمكنك الهروب من الحقيقة».

جلست على السرير لتخلع حذاءها وجواربها بتعب. بجزء من عقلها قاومت إغراء كلمته للخروج معه، لكن الجزء الآخر رفض الإعتراف بأن ذلك كان مغرياً. إنه لم ينتظر جوابها، لذلك فإنه لن يلومها إن هي رفضت.

استبدلت بذلتها، وربطت صندلها، وجلست عند النافذة المفتوحة، وقررت عدم الخروج حتى تتأكد بأنه قد قطع الأمل وذهب لوحده.

بعد قليل، أطلت إحدى الفتيات من الباب. «مخابرة هاتفية لك، يا سعاد». ذهبت قبل أن تستطيع سعاد أن تقترح عليها بأن تقول له أنها خرجت.

نزلت السلم متجهة نحو الهاتف. عرفت أنه سيكون الدكتور فارس لأن أصدقاءها خارج المستشفى هم قلة، ولا تتوقع من أحدهم أن يتصل بها. حاولت الحفاظ على صوتها بارداً وعادياً عندما قالت: «هالو. هنا سعاد».

«وأنا الدكتور فارس. ما هو الهدف من تركي أنتظر هكذا؟» بدا غاضباً.

«لم أقل بأنني سأخرج معك»، ردت سعاد. «أنت اعتبرت الأمر مفروغاً منه».

تغير صوته وقال بلطف: «أرجوكي، أيتها الممرضة، لا تدعيني أسبح لوحدي. إرحمي رجلاً وحيداً. البحر ينادي

وسيارتي تنتظر عند البوابة. تعالي..».

وجدت سعاد أن من الصعب مقاومة توسلاته. «لقد فكرت بالنوم بضع ساعات والخروج بعد الغداء»، قالت له.

«أرجوكي! أنت تعلمين أن الصباح هو أفضل وقت. إن الطقس يتبدل بعد الظهر، وهذا الصباح جميل. لا تضيعيه». وعندما ترددت سعاد، قال: «ألا يمكنك مواجهة بضع ساعات برفقتي؟ هل هذه هي المشكلة؟»

استسلمت سعاد. «حسناً، سأحضر».

«فتاة طيبة. سأنتظرك في السيارة».

هرعت تصعد السلم، واختطفت منشفة ومايوه السباحة، ووضعت وشاحاً على كتفيها في حال برد الطقس، وكانت جاهزة.

فتح لها الباب وهو يرحب بها بابتسامة دافئة.

نظرت إليه وقالت: «هناك بقعة جميلة على النهر. إني كثيراً ما أذهب إلى هناك في أيام الحر. هناك برودة وخضرة، وهي أفضل من الشاطيء الرملي. هل نذهب إلى هناك؟»

«أليست الطريق طويلة إلى هناك؟» سألها.

«لا ليست بعيدة».

«لكن كيف عرفت ذلك؟»

«لقد جعلت همي أن أكتشف. إذا كنت متعباً يمكنك أن تنام تحت الأشجار. إنه مكان هاديء وآمن».

استمتعت بركوب السيارة، فيما كان رفيقها يتحدث، وأخيراً وصلا إلى بقعة هادئة تحت مجموعة من الأشجار.

«حسنا، ليس هناك متطفلون، وهنا موقف خاص».

«إنها بقعة جميلة جداً. أليس الماء مغرياً؟»

فتح لها فارس باب السيارة وقال: «دعينا نقبل دعوة الماء. هناك العديد من الأماكن المنزوية لتبديل الثياب. اذهبي من هنا، وأنا أذهب من هناك. سنلتقي هنا عندما نصبح جاهزين».

«أسرعي إلى العمل»، قال لها عندما انضما إلى بعضهما بعد بضع دقائق.

بعد أن سبحا وتحدثا لبضع دقائق، قال الرجل: «يا سعاد، هل تعلمين أن هذه هي أول مرة أراك فيها سعيدة حقاً ومسترخية. لماذا تلك الظلال في عينيك دائماً؟»

نظرت إلى البعيد، وأغمضت عينيها على موجة الذكرى المفاجئة لكلماته غير المنتظرة.

وعندما لم تجب، وضع يده على يدها. «لا تكترثي لملاحظاتي. إنني متوحش. لم أقصد تذكيرك بأشياء تريدين نسيانها».

خرج من الماء، وجلس وهو يناديها: «تعالي! دعينا نتناول غداءنا. أنت ولا شك جائعة. هل تشعرين بالدفء هكذا، أم تريدين أن تبدلي ثيابك؟»

«غداء؟» نظرت إليه.

قهقه. «لقد أحضرته معي في السيارة. فقط ساندويشات وتيرموس شاي».

أخرج علبة الساندويشات من صندوق السيارة، وقالت: «هذه مفاجأة. من أين جاءت؟»

«لقد طلبت من عاملات المطبخ ملء التيرموس، واشتريت بعض الساندويشات من المطعم عندما كنت أنتظرك»، أعلمها وهو يبتسم ويضيف: «ومن ثم، عندما حضرت، شعرت بأن الكمية التي اشتريتها ستنفذ».

«ألهذا السبب كنت غاضباً عندما تحدثت على الهاتف؟» سألته. «لم تكن تريد أن تذهب الساندويشات سدى؟»

«هل ظهرت غاضباً؟» سألها. «ذلك لأنني كنت خائفاً أن يذهب اليوم الجميل الذي خططت له سدى. شكراً لمجيئك، يا سعاد».

وعندما انتهيا من الغداء، أحضر فارس علبة من التفاح اللذيذ فأكلا منها بسعادة وهما يستمتعان بأشعة الشمس والهواء النقي.

سبحا مرة أخرى، ثم ارتديا ثيابهما وسارا على ضفة النهر، وهما يتوقفان بين الحين والآخر ليقذفا بعض الحجارة إلى الماء.

وعندما صعدا إلى السيارة في نهاية النهار، قال لها: «لقد كان يوماً جميلاً. هل استمتعت به، يا سعاد؟»

أطرقت الفتاة برأسها، وقالت: «إنها بقعة جميلة. أفضل بكثير من الشاطيء الرملي».

«أرجو أن لا تكون هي المرة الأخيرة لنا في الأيام القادمة، يا سعاد».

هزت رأسها في نفي سريع، فنظر إليها بامتعاض: «لكن لماذا لا، يا سعاد؟»

بحثت عن الكلمات بيأس. «لماذا لا تطلب هذا من بعض الممرضات الأخريات؟»

نظر إليها بحنان وقال: «هل تسمحين بأن تخبريني الآن لماذا لا تريدين الخروج معي مرة أخرى؟» سألها بجدية. «ألم تستمتعي بهذا اليوم معي؟ ألا اعجبك؟»

هزت رأسها ثانية. «ليس الأمر كذلك. أرجو أن تصدقني بأنني قد استمتعت اليوم، لكن من الأفضل لنا أن لا نعيدها».

«لكن لماذا، يا سعاد؟ لماذا؟»

رفضت أن تلتقي عيناها بعينيه، فاستدار علامة على الهزيمة.

خيم صمت طويل، ثم نظر إليها بإمعان. «هل أنت مخطوبة لشخص ما؟»

«لا!»

نظراً للنفي القاطع، انشرحت أساريره. «حسناً، لن أسألك أي سؤال»، وعدها. «لكن هل هناك مانع في أن نكون صديقين؟ يمكنك أن تعيشي حياتك الخاصة، وأعدك بأن لا أتطفل. لكن أرجوك أن لا تقذفي بي في الظلام». ابتسم بمرح نحوها. «عديني فقط بالخروج معي من حين لآخر عندما نكون في إجازة».

ترددت سعاد. «لكنك جراح وأنا لست سوى ممرضة سنة ثانية»، قالت له.

«هذا لا علاقة له. أنت سعاد وأنا فارس خلال ساعات الإجازة. نحن لا نهتم بعلاقة طبيب وممرضة. أرجوكي، يا سعاد، قولي بأنك ستأتين».

لم تعد تستطيع الإحتمال طويلاً، فاستسلمت. «إذا كان بإمكاننا أن نكون فقط أصدقاء، فنعم»، وافقت بيأس.

«فتاة طيبة!» مد يده وشد على يدها، ثم أدار محرك السيارة. وبسرعة تركا خلفهما أمان وهدوء النهر، واتجها إلى المدينة الصاخبة وإلى متطلبات حياة المستشفى من جديد.

وبمرور الأشهر، حاولت سعاد إقناع نفسها بأنها كانت مهتمة بفارس فقط كصديق ورفيق. لقد أمضيا معاً العديد من ساعات الإجازة، وأحياناً في بقعتهما المفضلة لضفة النهر، أو يسبحان معاً على الشواطيء القريبة من المستشفى.

ذات مساء، وهما عائدين من أمسية ربيعية جميلة، كانت سعاد على غير عادتها هادئة، وهي تتعجب إذا كان من الأفضل وضع حد لمثل هذه المشاركة.

سألها بلطف: «ما الأمر، يا سعاد؟»

مرتعبة، نظرت إليه، وهزت رأسها بصمت، واستدارت نحو باب السيارة، لكنه وضع يده على كتفيها. «أريد أن أعرف، يا سعاد. لقد عادت تلك الظلال إلى عينيك. ما الأمر، يا عزيزتي؟» كان صوته رقيقاً، ووجد أنه يستحيل عليها أن تضع عينيها على عينيه، لكنه تجاهل احتجاجها وضمها إليه وهو يقول: «يا عزيزتي سعاد».

ارتجفت، وأبعدته عنها، وقبل أن تطل الرغبة من عينيه.

«أوه، يا سعاد، سعاد يا محبوبتي، ماذا فعلت لك؟» سأل متعجباً.

استطاعت فقط أن تهز رأسها بخمول، وبعد بضع دقائق فتح باب السيارة، وهمس بنعومة. «إنني آسف إذا كنت قد آذيتك، لكنني أكن لك عاطفة قوية، وأنت تبدين تعيسة».

حاولت الجلوس، لكنه ضغط رأسها ليريحه على كتفه وقال بهدوء: «لست أدري ما سبب كل هذا، يا سعاد، ولن أسألك ما لم تخبريني بنفسك، لكنني أريدك أن تكوني بالنسبة لي دائماً جميلة، يا سعاد. إنني أكن لك عاطفة جياشة، يا سعاد. إنني أعتقد أن عاطفتي نحوك بدأت منذ اللحظة التي رأيتك فيها لأول مرة عندما سألتك عن سبب تعاستك، وأنت بكل بساطة ألقيت الشاي في يدي وهربت».

«إنني لست معتادة على ذرف الدموع هكذا في كل مرة عندما يكون شخص ما لطيفاً نحوي»، أكدت له.

«إنني واثق من ذلك، لكن طالما اخترت كتفي لتبكي عليه، فلن أتذمر. عندما نتزوج، فإنني سأتذكر دائماً الإحتفاظ بعدد من المحارم معي، عند الحاجة».

غاب اللون من وجهها، وشهقت تقول: «لكنني لا أستطيع الزواج منك، يا فارس. أنت تعرف ذلك. لقد اتفقنا على أن نظل أصدقاء».

«لكن ذلك كان فقط لإعطائك الوقت الكافي للتعرف عليّ وتحولي عاطفتك نحوي. أنت تعرفين ذلك بكل تأكيد. إنني لا أريد أن أدفعك، يا سعاد، لكنك تكنين لي عاطفة قوية، أليس كذلك؟»

بيأس قالت: «يا فارس، يجب أن تصدقني. إنني لن أستطيع الزواج منك، أو من أي شخص آخر».

«لكن لماذا، يا سعاد؟ هذا غير معقول. إذا كنت تكنين عاطفة نحوي، فلماذا لا تتزوجينني إذن؟» في ظل السيارة، نظر إليها بحيرة، وهو يحاول عبثاً إيجاد سبب لرفضها.

وبجهد أبعدت نفسها عن ذراعيه. «لم أكن أريد أن أقول لك هذا، يا فارس، لكنني أرى بأنه يتوجب علي أن أشرح لك السبب في عدم استطاعتي الزواج».

توقفت، وناولته علبة سجائره التي كانت موضوعة على ظهر المقعد. «هيا، أشعل سيجارة، وأرجوك أن لا تعارضني وإلا فإنني لن أستطيع الإستمرار. وعندما أنتهي أعدني إلى المستشفى واتركني هناك. لست بحاجة لتقول أي شيء. لكن قبل أن أبدأ، أود أن أشكرك على كل شيء. لقد كانت صداقتنا مدهشة، وإنني أقدر الساعات الجميلة التي قضيناها معاً».

في وهج عود الثقاب الذي أشعله لإشعال سيجارته، نظر إليها. «لا يا سعاد. لا تنهي كل شيء»، قال لها وهو يعيد علبة السجائر، ويأخذ نفساً عميقاً. «إن أي شيء تقولينه لن يؤثر على مشاعري نحوك. إنني أكن لك عاطفة قوية، يا سعاد، ولا شيء يستطيع أن يغيرها».

«حتى ولو كنت قاتلة؟» قالت بصوت متوتر منخفض.

«ماذا؟» رنة الذهول بدت في صوته، وقبض على

ذراعها بقوة تركت آثاراً أرجوانية عليها، لكنها لم تشعر بالألم وهي تقول ببطء: «حسناً، أخلاقياً، إن لم يكن جسدياً. أخلاقياً إنني مسؤولة عن وفاة رجلين في مستهل حياتهما».

«رجلان!» أطفأ السيجارة التي لم يدخنها، ورماها من نافذة السيارة، وقال بجدية: «الآن أرجوك، يا سعاد، أريد القصة بحذافيرها ـ بدون نقصان. فقط الحقيقة العارية».

وهكذا روت له القصة الحقيقية بكل بساطة.

«هذا ما حدث. وإنني سأضحي بحياتي لرفع الأذى الذي تسببت فيه. لماذا يعاني البريء بدل المذنب؟»

قال فارس بعنف: «لا تكوني حمقاء، يا سعاد. لا تضعي اللوم على نفسك لأن شاباً نصف مجنون فقد عقله تماماً وارتكب جريمة قتل وانتحر».

«لأنه بسبب غلطتي قتل جمال ابراهيم. لقد كنت أكن عاطفة جياشة لابراهيم وجن جنون جمال بالغيرة».

هز فارس رأسه. «وربما، بصورة غير مباشرة، لك علاقة بالمأساة، لكن من المحتمل أن كل واحدة من شرور الحياة قد تعود آثارها إلى البداية البريئة. لا يمكن أن نعتبر مسؤولين عن النتيجة النهائية لأعمال نقوم بها بنية حسنة».

«لا فائدة. إنني غير محظوظة في أمر العاطفة. هذان الرجلان كانا سيبقيان على قيد الحياة لو لم يكنا عاطفة قوية نحوي».

هزها بلطف. «سعاد، يا سعاد، كوني كبيرة. بكل تأكيد لقد كان الحادث رهيباً، وبالطبع لقد تحطم قلبك ولمت نفسك، لكنك قمت بعمل حكيم عندما بدأت حياة جديدة، ونسيت كل شيء».

صرخت بعاطفة: «لن أنسى».

«لا»، أجابها بهدوء. «إنك لن تنسي تماماً. لا أحد يتوقع ذلك منك، لكن بكل تأكيد أنت لا تنوين قضاء بقية حياتك في التكفير. ما هي الفائدة التي ستجنينها؟»

«لا شيء، على ما أعتقد»، وافقت. «لا شيء يمكن أن يعيد لي ابراهيم، لكنني بالعمل بين المرضى والمصابين، أشعر بأنني أقوم ببعض الخير للتكفير عن الأذى الذي تسببته».

ضمها إليه وقال: «الآن لا أريد سماع المزيد من هذا الهراء الذي جعلك مستحيلة. هذه حياة جديدة ستبتدئين بها معي، وما لم أحطم كل حدود السرعة في العودة إلى المستشفى، فإنك ستتأخرين، يا فتاتي، وهذه بداية سيئة لحياتنا الجديدة».

«يا إلهي! لقد نسيت الوقت تماماً».

كانا صامتين في طريق العودة، وكانت حركة السير خفيفة، لكن كانت أمامهما بضع دقائق قبل أن يوقف السيارة أمام البوابة.

فتح لها الباب بسرعة، وقال بنعومة: «تصبحين على خير، يا عزيزتي. أشكرك على قول كل شيء لي؛ والآن من أجل خاطري، هل ستنتسين الموضوع؟ تذكري بأنني أكن لك عاطفة صادقة قوية. وحتى الغد، فليباركك الله».

كانت ليلة الجمعة قبل أن يلتقيا من جديد خارج المستشفى. وعندما دخلت إلى السيارة لتجلس إلى جانبه، أمسك يدها بلطف، وهمس: «هل هناك من خطط؟».

هزت رأسها.

«حسناً. سنذهب إذن إلى الريف ونجد بقعة جميلة هادئة حيث يمكننا أن نتحدث».

ربما سيقول لها أنه لا يستطيع الزواج من إمرأة في ضميرها مقتل شابين، فكرت سعاد بحزن، لكنه عندما أوقف السيارة في زقاق هادىء، التفت إليها وأمسك ذراعيها.

«فقط لأقنع نفسي بأنني لا أحلم بأنك تكنين لي عاطفة طاهرة نقية»، أخبرها وهو يطلق ذراعيها. «رغم أنني أعتقد بأنك لم تعترفي بذلك، فإن شفتيك فقط تبوحان بذلك لي».

قالت وهي تلتقط أنفاسها: «إنني خائفة أن أعترف بذلك، حتى لنفسي، لكن، أوه، يا فارس، أنت تعلم بأنني أحفظ لك في قلبي عاطفة قوية».

«نعم، يا عزيزتي، أعلم ذلك. والآن، متى يمكننا أن نتزوج؟ لا تتركيني أنتظر طويلاً».

أخيراً اتفقا بأنه يتوجب عليها أن تنهي سنتها الثانية في المستشفى، حيث عندها سينتهي موعد تعاقده مع المستشفى ويصبح مستعداً للبدء لحسابه الخاص.

وفي النهاية تعاهدا على أن يكون كل واحد منهما للآخر.

الفصل الخامس

حتى يحين اليوم الذي ستتزوج فيه فعلاً من فارس، لم تصدق سعاد تماماً بأن شيئاً ما لن يحدث ليحول دون حفلة الزفاف. لقد عاشت تحت كابوس أن الزواج السعيد لن يكون من نصيبها، لكن الآن، عندما ظهر أنه أصبح في متناول يدها، خافت حتى أن تعيش على ذلك الأمل.

أخذ فارس يهدىء من روعها، ويقول لها كوني مؤمنة وارمي ذلك الجزء من حياتك وراء ظهرك، وتطلعي نحو المستقبل.

أعجبت برجاحة عقله، وقوة خلقه، وفوق كل ذلك، برقته وتفهمه.

بعد المزيد من البحث، عثرا على بيت على مرتفعات جبل يطل على مياه البحر. كان البيت كبيراً ومن طراز قديم، وتحيط به حديقة مليئة بالأشجار والشجيرات المهجورة، لكن سعاد أعجبت بالبيت من أول نظرة.

كان فارس أكثر حذراً. «هناك الكثير من العمل يجب القيام به، يا عزيزتي، وأحذرك بأنني لست بستانياً».

رفضت سعاد الخوف، فخلال الأيام الأولى من حياتها الزوجية، ستجد لديها الوقت الكافي للإعتناء بالحديقة

عندما يكون فارس مشغولاً في عمله.

قبل زواجها، كان مجال نشاطها هو مساعدة والدتها من حين لآخر في التعشيب، أو في جز أعشاب المروج، أو قطف الأزهار في مزهرية. لقد اكتشفت الآن أن باستطاعتها زراعة الأزهار حسب ألوانها، بنفس الطريقة التي كانت تشاهدها في الحدائق العامة.

بعد الظهر ستجلس على الفيراندا، تنتظر عودة فارس من عمله. وخلال الخريف القادم من السنة الثانية لزواجها، ستقضي هنا الكثير من ساعاتها السعيدة في حياكة وخياطة الثياب للطفل القادم.

«أريد أن تكون عندي عائلة من خمسة أو ستة»، أخبرت فارس في اليوم الذي قررا فيه شراء البيت، لكن عندما ولدت طفلتها الصغيرة بعد أربعة وعشرين ساعة من القلق، كانت خلالها حياة الطفلة والأم معلقة في الميزان، خافت سعاد أن يكون لديها المزيد من الأطفال.

«لا بأس، يا عزيزتي»، خفف عنها فارس. «على الأقل لدينا واحدة. فكري بمئات النساء اللواتي لا ينجبن. وتذكري أننا ما زلنا لبعضنا».

وسعاد، رغم حزنها لمعرفتها بأن ابنتهما ستكون محرومة من الأخوات والأخوة، عرفت أن فارس كان على حق. إن لديهما طفلتهما وأنهما ما زالا لبعضهما، وأن هناك السعادة الكافية.

كانا يقضيان الكثير من نهايات الأسبوع في منزل والدي فارس، اللذين فرحا كثيراً بحفيدتهما الصغيرة. كبرت ليلى وأصبحت طفلة جميلة ذات ملامح ملائكية كانت أحياناً تتلون بسورات الغضب، عندما تتوقد عيناها الزرقاوان.

لحسن الحظ، مثل هذه السورات من الغضب كانت نادرة، وفيما عدا ذلك كانت طفلة سعيدة، قانعة بأن تكون ملكة على أجدادها.

«يجب أن لا نفسدها»، قال والدها بحزم. «ليس هناك بين رفيقاتها طفلة فاسدة، ومع ذلك فإن اللوم يوضع على الوالدين، وليس على الطفلة».

وافقت سعاد. «لقد رأيت ما يكفي من الأطفال الفاسدين عندما كنت في التمريض. لقد كان صعباً جداً عليهم عندما يجدون أنفسهم فجأة في جناح مع دستة من الأطفال الآخرين. إنه من الصعب عدم إفساد الوحيدة، لكن لصالحها، وصالحنا، يجب أن نكون حازمين».

قال فارس: «نحن لا نريد أن نتبنى أطفالاً آخرين، أليس كذلك؟».

هزت سعاد رأسها بإصرار. «لا»، قالت بتفكير. «إنني لست ذلك النوع الأمومي العنيف. لو كان لدينا أطفال آخرين لكنت سعيدة، لكن لو تبنينا واحدة، فإنني أخاف أن لا أشعر نحوها نفس شعوري نحو ليلى، وسيكون الأمر رهيباً وغير عادل».

أطرق برأسه موافقاً. «إنني أشعر نفس الشعور. فلو كان لدينا أي طفل من صلبنا، لاختلف الأمر، لكن لدينا ليلى، وعندي أنت. بالنسبة لي، هذا يكفي».

«وكذلك بالنسبة لي»، ردت سعاد بحرارة.

مرت السنوات بسعادة وبسرعة حتى أنه كان من الصعب التصديق بأنهما شاركا بعضهما أربع عشرة سنة قبل أن يتحطم عالم سعاد الحميم.

كان فارس عائداً من عمله متأخراً، وكان ينعطف حول تلة بيته في ساعات الصباح الأولى، عندما سيارة يقودها شاب في الثامنة عشرة من عمره كان قد شرب كثيراً في حفلة، جاءت مسرعة عند المنعطف على الجانب الخطأ واصطدمت بسيارة الطبيب.

كان فارس ميتاً عندما انتشلوه من بين حطام سيارته، والشاب توفي لاحقاً في المستشفى بسبب جروحه الخطيرة، ومهارة فارس ومعرفته كان بإمكانهما إنقاذ حياة الشاب، لو أنه بقي حياً واستخدمهما.

نهضت من فراشها لتجيب على رنات جرس الباب غير المتوقعة في ساعات الصباح الأولى، وعلمت سعاد أنها أصبحت أرملة.

كالإنسان الآلي فعلت ما يجب أن تفعله. نقلت النبأ إلى ليلى إبنة الثلاثة عشر ربيعاً، التي نظرت عدة لحظات

وهي مصدومة لا تصدق، وهزت ذراعي والدتها، وهي ترفض تقبل أية مؤاساة...

نظرت إلى الوراء الآن، أدركت سعاد الغلطة التي ارتكبتها منذ أربع سنوات. مذهولة في حزنها، لم تدرك، في بادىء الأمر، الحاجز الذي فصل بينها وبين ابنتها. ولأنها كانت متألمة بعمق، فقد أغلقت على نفسها، وفعلت ليلى نفس الشيء. وبمرور الزمن، وعت سعاد ذلك الحاجز، لكن بعد فوات الأوان. لم تستطع أن تجد أية نقطة وصل مع ابنتها المراهقة.

الصدمة والإضطراب في حياتهما الرصينة، المنتظمة قد بعثرا كل شيء. مرت شهور قبل أن تستطيع سعاد أن تصدق بأن زوجها لن يعود، وأحياناً كانت تجد نفسها تصغي لوقع خطواته في الموعد المحدد لعودته من عمله.

حتى لأسباب غير اقتصادية، باعت سعاد البيت لأنه كان يحمل ذكريات أليمة. اقترح عليها والدا فارس أن تعيش معهما بصورة مؤقتة، حتى تتمكن من إعداد بيت بصورة دائمة.

قررت البقاء في المدينة بصورة غير مستقرة من أجل ليلى، لكي تبقى في مدرستها وبين صديقاتها القديمات.

أخيراً، وبعد بحث وتنقيب، وجدت بيتاً عصرياً صغيراً بغرفتي نوم، وعلى مقربة من مدرسة الفتاة ورفيقاتها.

وعندما استقرتا أخيراً في البيت الجديد، قررت سعاد بأنه يجب أن تقوم بعمل ما لكي تنسى مأساتها. إنها ستبحث عن عمل.

الطبيب ماهر، زميل سابق لفارس، والذي كانت لديه الآن عيادة خاصة، منحها وظيفة موظفة استقبال.

سرعان ما بدأت ليلى في مدرستها الثانوية، وتغيرت، وأصبحت تخرج في الليل فقد تحولت من طفلة إلى مراهقة. شجعتها سعاد بأن تحضر صديقاتها إلى البيت، لكنها عندما فعلت، أخذتهن إلى غرفتها حيث يستمعن إلى الموسيقى الصاخبة، أو يجلسن على السرير ويطلقن النكات، أو يتحدثن ويضحكن بصوت عال.

أحياناً كانت سعاد تحاول التعرف على صديقات ليلى، لكن الفتاة اعترضت كل مجهود كانت تبذله والدتها للإشتراك في حديثهن، وكانت تسرع في إبعادهن إلى غرفتها، وبدت سعاد معزولة لوحدها.

خلال الليالي الطويلة، الموحشة التي كانت فيها سعاد تفتقد فارس كثيراً، كانت تغلق غرفتها على نفسها وتقوم بأعمال البيت، ورغم ذلك فإن صوت الراديو المرتفع كان يطن في أذنيها.

منذ كانت فتاة صغيرة، كرست ليلى حياتها لحياة التمريض، وعملت بجد في مدرستها وحصلت على

الشهادة المدرسية في نهاية سنتها الثالثة، واجتازت امتحان الدخول إلى الجامعة في نهاية السنة الرابعة. اعتقدت سعاد أنها أصبحت جاهزة للبدء في التدريب كممرضة عندما أعلنت فجأة، وهي في السابعة عشرة، أنها تريد الزواج من سمير.

كان سمير في السادسة والعشرين، شاب ساحر، كثير الأسفار. وفيما كانت ليلى في منتصف سنتها الأخيرة في المدرسة الثانوية، ذهب ليقيم مع عائلة إحدى صديقات الفتاة، ومن أول لقاء سحرت به ليلى الشابة.

فقط مؤخراً أحضرته إلى البيت للقاء والدتها، ورغم أن سعاد اعترفت بجماله، شعرت أن ابنتها تستغل الصداقة أكثر مما يريد. كانت تتعلق بكل كلمة يقولها، وقد تألم قلب والدتها من أجلها. تذكرت بوضوح كيف تحطم قلبها عندما اكتشفت أن رشيد ينوي الزواج من خطيبته التي رفضت الإعتراف بوجودها، وخافت أن يتحطم قلب ابنتها هكذا.

حاولت أن تحذرها، لكن الفتاة ثارت، واتهمتها بأنها تحاول تحطيم سعادتها. ولما عرفت أن سمير سيغيب في دورة خارجية لمدة ستة أشهر، قررت أن تداهنها، وهي تعتقد أنه في الوقت الذي سيحين فيه موعد عودته، ستكون ليلى قد استقرت في حياة التمريض، وربما، في نفس الوقت، تكون قد التقت شاباً آخر في سنها.

ثم فجأة، وبدون سابق إنذار، صرحت الفتاة عزمها على الزواج من سمير قبل أن يسافر. حاولت سعاد أن تكون عادلة ومعقولة، وأشارت أنها لا يمكن أن توافق ليلى، إبنة السبعة عشر ربيعاً، على زواجها من رجل لا تعرف عنه إلا القليل، وهو أكبر منها نفسها، لكن الفتاة بكل بساطة حبست نفسها في غرفتها، غاضبة حانقة، ومتهمة إياها بقلة الفهم، تماماً مثلما سعاد اتهمت والديها ذات مرة.

تنهدت سعاد. لقد كان من الصعب على أم، خاصة إذا كانت أماً بدون زوج يساندها في تعاملها مع مراهقة ثائرة.

بعد بضعة أيام من سورة غضب ليلى، حضرت شقيقة فارس لتمضية أسبوع مع سعاد. ورغم أن سعاد لم تكن على علاقات طيبة مع عائلة فارس، فإن شقيقته ماجدة كانت محببة بشكل خاص، ليس فقط لأنها كانت بنفس سنها ولديهما اهتمامات كثيرة مشتركة، لكن لأنها كانت تشبه شقيقها كثيراً، من حيث الشكل والعقل.

لحسن الحظ سارت الأمور على غاية ما يرام بين ليلى وعمتها، وتأملت سعاد أن وصولها سيخفف من حدة التوتر بينها وبين ابنتها، التي كانت تخرج من البيت غاضبة متجاهلة محاولات والدتها لتعيدها إلى عقلها.

وضعت قبعتها لتذهب إلى المحطة للقاء شقيقة زوجها،

شعرت سعاد بالهرم والحزن والإنهزام، وقاومت الدافع لوضع رأسها بين يديها لتبكي. لقد شعرت بأنها نوعاً ما قد خيبت أمل فارس في التعامل مع ابنتهما. إنها مهما حاولت من جهد، فإنها لم تستطع من وصل ما انقطع بينها وبين ابنتها.

بثقة مفاجئة، قالت سعاد: «أوه، يا ماجدة، لقد فشلت في مهمتي كأم. لقد خيبت أمل فارس، ومع ذلك لا أدري أين الخطأ».

قالت ماجدة بلطف: «لماذا، ما الأمر؟ إن ليلى على ما يرام».

«لكن، يا ماجدة، إنها تريد أن تتزوج من سمير. وهي تريد إهمال كل فكرة عن التمريض. والآن هي تكرهني لأنني أقول بأنها صغيرة جداً. إنها تتهمني بقلة الفهم وترفض أن تصغي لي عندما أحاول أن أشرح لها الأسباب. إنها تخرج من الغرفة غاضبة. لم أعد أستطيع الإقتراب منها».

كان وجهها قناعاً مأساوياً من البؤس، فربتت ماجدة على كتفها مطمئنة. «إنها حالة! يا سعاد. الجميع يمرون بها. إنها ستخرج منها».

«ولكن هل ستخرج منها؟ قبل وفاة فارس، كانت مختلفة، صريحة وعلنية وذات طباع نيِّرة. الآن هي مشوشة وغامضة، وأنا أخاف أن أفتح فمي».

شعرت ماجدة أن بإمكانها التحدث إلى ليلى وتساعد الفتاة على رؤية كل جوانب الوضع. الآباء هم دائماً الأفضل في التحدث في الأمور السرية مع أبنائهم. وافقت سعاد على مضض.

راقدة في فراشها فيما بعد، سعاد، لأول مرة، سرحت أفكارها إلى سعيد ابن عم فارس الذي حضر لزيارة ابنه، المتزوج الذي يعيش في المدينة. احتفظت له ابنته ببيت منذ وفاة زوجته من سنتين، وكان قد تزوج، وهكذا فإن سعيد بناء على إلحاح ابنه، باع بيته، وترك عمله في جريدة كبيرة، وسافر إلى نيوزيلندا.

أمضى نهاية الأسبوع عند والدي فارس، وهناك التقت به سعاد.

نظرتها الأولى له داعبت أوتار قلبها. عن بعد كان يشبه فارس تماماً.

حتى والدة فارس قالت، عندما كانت المرأة الشابة تغادر: «ألا يذكرك سعيد بفارس، يا سعاد؟ بالطبع، فأنا ووالدته كنا توأمين، توأمتين متطابقتين، فهذا ليس غريباً».

كان سعيد يعيش في المدينة بصورة مؤقتة مع ابنه وكنّته ليجوب البلاد ويقرر خطوته التالية.

«إذا أعجبني المكان هنا، فسأقيم،»، قالت لعمته! «لا حاجة بي للعودة لأن شقيقتي قد تزوجت، والوالد والوالدة سافرا».

«إنني متأكدة بأن المكان سيعجبك»، أكدت له عمته بحرارة. «إنني لم أندم على مجيئي للعيش هنا. ورغم كبري، فقد مضى على إقامتي هنا خمس وخمسون سنة، ومعظم صديقاتي رحلن».

التقت سعاد بسعيد عدة مرات منذ ذلك اليوم. وعندما يأتي إلى المدينة، كان يزورها، إما وحيداً، أو بصحبة ابنه وكنته، ورغم أنها رفضت دائماً أن تعترف، حتى لنفسها، فقد كانت تتشوق لزياراته.

لقد أعجبت به كثيراً، هكذا اعترفت. كان لطيفاً ومفكراً، وبالرغم من سنواته الاثنين والأربعون، كان لا يزال مرحاً ومغامراً. لقد أعجبت بلكنة صوته، وعينيه الخضراوين، لكنها عرفت دائماً بأن هناك حاجزاً خفياً يحول دون التقارب بينهما.

عندما توفي فارس، قررت أن تجعل سعادة ابنتها هي همها الوحيد، ورفضت أن تعترف بأن هناك أي مستقبل لها.

بعد ظهر ذات يوم قبل أن تنتهي زيارة ماجدة، قالت لسعاد: «لقد تحدثت طويلاً بسرية مع ليلى هذا الصباح، عندما كنت في العمل، ومما قالته، يبدو أنها وسمير قررا الإنتظار حتى يعود من دورته قبل الحديث عن الخطوبة والزواج».

«حسناً، أشكرك على كل حال. ربما الآن ستفكر في التمريض»، قالت سعاد بحزم، رافضة الشعور بالغيرة لأن ليلى قد زفت النبأ إلى عمتها فيما والدتها ظلت جاهلة بقرارها.

«نعم، حسنا، هذا هو ما ناقشناه، وقد فهمت، رغم أنها أخيراً وافقت أخيراً على المضي في خطتها لتصبح ممرضة، فإنها تفضل أن يتم التدريب بعيداً عن هذه المدينة».

«أوه!»

«إن ليلى تمر بفترة صعبة جداً. أعتقد أنها غاضبة منك، لأنها تريد أن تجرب جناحيها، ورغم ذلك تشعر بأنك ستكونين وحيدة بعيدة عنها، وأن الطريقة الوحيدة التي تستطيع أن تتركك فيها دون أن تشعر بالذنب هي أن تتزوج».

«لكن، يا ماجدة، أنا لن أقف في طريقها إذا أرادت أن تتدرب في مكان آخر»، قالت سعاد محتجة.

«أعرف ذلك، لكن من الطريقة التي تحدثت بها، عرفت أنها ستشعر بالذنب إن هي تقدمت بالإقتراح. إنها ستشعر بأنها تهجرك. هل تعلمين ما قالته لي؟» هزت سعاد رأسها. «لقد قالت: «لو كان لدى والدتي أصدقاء تستطيع الذهاب عندهم، لكن خلافاً لأصدقائها وأصدقاء أبي القدامى القلائل، فليس لديها أحد».

قالت سعاد بمرارة: «لقد امتنعت عن الخروج مع صديقاتي لأنني شعرت بأن ليلى قد تعتقد بأنني أتجاهلها.».

قالت ماجدة بلطف: «نحن الأمهات لا يمكننا أن نربح. لقد كانت حزينة عندما أخبرتني بأنها لن تأتي إلى البيت ليلاً لتجده فارغاً».

الليلة التي سبقت مغادرة ماجدة، وصل سعيد من إجازته. كانت سعاد جالسة على مقعد إلى جانب النافذة، فخفق قلبها فجأة عندما شاهدته يدخل من البوابة. وبجهد، حافظت على رباطة جأشها عندما قالت: «ها هو ابن عملك، يا ماجدة، قد حضر ليودعك». نهضت لكي تدخله.

«أهلاً، يا سعاد، إنه لجميل أن أراك»، قال محيياً.

كان ترحيب ماجدة أكثر دفئاً. «يا سعيد، كم هو جميل أن أراك! تبدو بصحة جيدة. لقد كنت في إجازة، على ما أعتقد».

«نعم. لقد قمت بجولة سريعة في جزيرة الجنوب. إنها جميلة».

«ومتى ستعود إلى الشمال؟»

«ليس لفترة. لقد استلمت عملاً في الجريدة المحلية لعدة أشهر، لذا فإن علي البقاء». قال شارحاً.

سألهما عما حدث في المدينة في فترة غيابه، وأخبراه بقرار ليلى بالسفر.

«ستكونين وحيدة بدونها، يا سعاد»، قال بعطف.

وافقت سعاد، لكنها أخبرته بأنها ستترك غرفة ليلى لممرضة ستعمل في المستشفى المحلي.

بعد تفكير قال سعيد: «هل تعلمان ماذا سأفعل بعد انتهاء عملي في الجريد المحلية؟» هزتا رأسيهما. «أريد أن أشتري مقطورة سكنية وأقضي ستة أشهر مسافراً، أتوقف حيث أريد، وأسير حيث تقودني الطريق. إنني قد أقوم بأعمال صحفية لتغطية مصاريفي، وقد أكتب كتاباً حول رحلاتي. ماذا سأسميه؟ «صحافي يجوب العالم»؟»

ابتسم إليهما، وشعرت سعاد بطعنة حادة من الحسد. كم هو جميل أن يترك المرء كل شيء وراءه، يعيش كالغجر ويتوقف حيث يمليه عليه خياله. لقد عرفت، أيضاً، أن سعيد سيكون رفيقاً مثالياً في مثل هذه الرحلة. إنه لم يفقد إحساس الشباب بالمغامرة.

وهكذا في شهر شباط سافرت ليلى، تاركة البيت لوالدتها، دون أن تنظر خلفها، والممرضة أقامت في غرفة سعاد الشاغرة. كان اسمها داليا، في أواخر العشرينات من عمرها، مرحة، ومن النوع الأليف. اعترفت سعاد لنفسها أنها كانت رفيقة أفضل بكثير من ليلى.

كثيراً عندما تكون في إجازة مسائية، كانت تقول لسعاد: «تعالي يا سيدة سعاد، دعينا نحتفل الليلة». كانت تجرها معها بالرغم من اعتذارها.

لم تخف داليا حقيقة إعجابها بسعيد. وشعرت سعاد بأنها كانت تحاول قدر الإمكان للقائه خلال ساعات إجازتها. كانت فتاة جذابة، ذات شعر أسود قصير ساحر ـ اعترفت سعاد في نفسها ـ أنها كانت شابة!

من أول لقاء تقريباً بدأت تنادي سعيد باسمه مجرداً من اي لقب، رغم إنها ما زالت تخاطب سعاد بالسيدة، وعندما قالت لها سعاد ذات يوم: «لماذا لا تسقطين كلمة سيدة؟» ردت المرأة بدون تفكير: «أوه، لكنني أود أن أناديك باسمك الأول لو لم تكوني كبيرة».

قالت سعاد بحدة: «وماذا عن سعيد؟ إنه أكبر مني؟».

ذهلت داليا وقالت: «هل هذا صحيح؟ نعم، أعتقد أنه يبدو شاباً». تذكرت سعاد بمرارة فارق السنين بينها وبين المرأة الشابة.

سمعت سعاد بانتظام من ابنتها، التي استقرت سعيدة في حياتها الجديدة. كانت دائماً تذكر لها سمير، ومن الواضح أنها كانت تسمع منه بانتظام.

كانت لا تزال قلقة على مستقبل الفتاة، لكن ذات يوم، عندما فتح الموضوع بحضور سعيد، هز رأسه إليها وقال:

«يا سعاد، يا سعاد، متى ستتعلمين عبور جسورك فقط عندما تأتين إليها؟ سمير سيغيب لمدة ستة أشهر، لذلك لا حاجة لمواجهة تلك القضية إلا عند رجوعه. ضعيها على الرف، وانسيها، فلربما تحل نفسها بنفسها».

قالت له بنوع من العداء: «أظن بأنك تعتقد بأنني أم متملكة؟»

تردد. «لا ليس تماماً. لكنني أعتقد بأنك تقلقين نفسك بدون طائل. ليلى شابة ومندفعة، بكل تأكيد، لكن لديها الكثير من الحصافة. ستكون على ما يرام، صدقيني».

بصوت خافت قالت سعاد: «إنني أشعر بأنني قد خيبت أملها، نوعاً ما. فقط لو أن فارس كان هنا».

تقدم سعيد نحوها بسرعة حيث كانت تجلس قرب النافذة ونظر إليها، قائلاً بعطف: «يا سعاد، لا تعيشي في الماضي. يجب علينا أن نتقبل الأشياء التي لا نستطيع تغييرها. إنه أمر ليس بالسهل، لكن لا تسمحي لنفسك تشعر بالمرارة».

وضع يده على كتفها، لكنها قفزت واقفة، وأبعدتها متجاهلة الألم في عينيه، وقالت بصلابة: «أنا آسفة إذا كنت أشعر بالمرارة. لقد اعتقدت أنك، على الأقل، ستفهم».

بلطف قال لها: «إنني أفهم، يا سعاد، لكنني أعتقد

بأنك تسمحين لنفسك للعيش في الماضي. إنك تنكرين المستقبل».

«بالنسبة لي، ليس هناك من مستقبل»، اعترفت بصوت عاطفي منخفض.

فتح فمه ليجيب، لكن داليا، التي كانت قد ذهبت لإعداد العشاء، دخلت وهي تحمل الصينية، وضاعت اللحظة.

فكرت لاحقاً، تعجبت سعاد إذا كان هو على حق. هل هي سمحت للمرارة والندم أن يفسدا حياتها. لكن كيف يمكنها أن تتغلب على المرارة؟ سألت نفسها. فارس وأنا كنا سعيدين معاً. ليس من العدل أن يموت.

لكن ألم يفقد سعيد زوجته التي كان سعيداً معها؟ إنه لم يسمح لحزنه أن يسبب له المرارة. هل عانى كثيراً خلال ساعات الليل الطويلة، كما فعلت هي، من الألم الذي أخفاه عن العالم الخارجي؟ هل هو يكرهها لأنها سمحت لحزنها بالظهور؟

لقد تردد عندما اتهمته بأنه يعتقد بأنها أماً متملكة. ربما هي فقط اتخذت من شباب ليلى عذراً لأنها لا تريد أن تفقدها، لتشاركها مع شخص آخر.

عندما أقامت ماجدة مع سعاد، اقترحت أن ليلى شعرت بالمسؤولية تجاه والدتها لأنها بدت وحيدة. إنها، بدون

وعي، استخدمت ابنتها، كل تلك السنوات منذ وفاة زوجها، كعذر لإبقاء نفسها على هامش الحياة.

كممرضة، فإن ليلى ستكون مستقلة عن والدتها، سواء تزوجت سمير أم لا. إن على سعاد أن تجعل من نفسها مستقلة، أيضاً. إن عليها أن تجمع صديقاتها ومصالحها كيلا تأسف ابنتها من أجلها، ولا هي تريد، اعتقدت بامتعاض، من سعيد أن يشعر بمسؤولية ابن العم تجاهها. إنها ستدعهم يرون أنها قادرة على ترتيب شؤونها الخاصة. لا حاجة لأحد بأن يشعر بالأسف لأجلها.

وفي المرة التالية عندما يدعوها هي وداليا للخروج، ستثبت استقلاليتها عن طريق ارتباطات سابقة. إنها تعلم أن المرأة الأخرى ستفرح لتكون وحدها مع سعيد، وهو، أيضاً، بدون شك سيشعر بالإرتياح عندما يعلم بأنه ليس بحاجة ليحسب حسابها في دعواته لداليا. إنها لن تكون عبئاً على أي منهما.

الفصل السادس

تصحيحاً لعزمها، فقد اقترح في المرة التالية، مساء يوم سبت، أن يحضر ليأخذ المرأتين بالسيارة في مشوار بعد ظهر اليوم التالي، فقالت سعاد بعذوبة: «أنا آسفة، لكنني لن أتمكن من الذهاب، لقد وضعت خططاً أخرى للغد».

أدركت في لحظة مفاجأة مذهلة قبل أن يستعيد سعيد وعيه ويقول بخفة: «أوه حسناً، لا بأس، نستطيع أن نترك المشوار للأسبوع القادم».

وبنظرة إلى خيبة الأمل على وجه رفيقتها، قالت سعاد برشاقة: «لكن بكل تأكيد هذا ليس ضرورياً. إن داليا متلهفة للخروج بالسيارة في مشوار إلى الريف بعد عناء أسبوع عمل في المستشفى». وكان ما كان.

بعد ذهابه، قالت داليا بغرابة: «إنني لم أكن على علم بأنك وضعت خططاً أخرى للغد». وقد ردت سعاد: «أوه، لقد نسيت أن أذكر لك ذلك. لقد قابلت صديقة قبل الأمس، وقد اتفقنا على الخروج معاً».

لم تزعج نفسها للشرح، واعتقدت بأن سعيد سيحضر ليرى إذا كانتا ترغبان في مشوار، فاتصلت هاتفياً بزوجة أحد زملاء فارس، واتخذت الترتيب.

إذا كانت زوجة زميل فارس قد فوجئت بالدعوة لمرافقة سعاد إلى معرض الفنون التجريدية، فقد أخفت المرأة دهشتها، وقالت بأنها تتمنى الخروج معها. ولما كانت تعرف مدى اهتمام تلك الزوجة بهذا الفن، فقد شعرت سعاد بالأمان عند تقديم هذا الإقتراح.

وفيما كانتا تستعرضان الصور المعروضة بعد ظهر يوم الأحد، وتلك الزوجة تتوقف طويلاً عند جمال أحد التصاميم والأشكال المعروضة في المعرض، كان عقل سعاد بعيداً عن الغرفة المزدحمة باللوحات الغريبة.

كان الطقس بارداً جداً، فالخريف الآن قد تحول إلى شتاء، فعرجتا لشرب كوب من الشاي في أحد المحلات المنتشرة على طول الطريق. تصورت رأسين، أحدهما أشقر والآخر داكن، يميلان نحو بعضهما فوق الطاولة.

قال صوت الزوجة: «أنظري إلى هذا، يا سعاد! أنظري كيف تندمج وتختلط الألوان، ورغم ذلك كل ضربة تحافظ على هويتها المنفصلة». توقفت أمام الصورة في إعجاب، لكن سعاد لم تر شكلاً أو وحدة في منظار الأشكال والألوان على القماش أمامها.

تصورت وهي عائدة إلى المدينة، أن داليا ستكون قابعة في السيارة مع سعيد في لقاء ودي. حتى عندما كانت سعاد تخرج معهما، كانت المرأة الأخرى تطالب بالجلوس إلى جانب السائق، تاركة المقعد الخلفي لسعاد. لماذا

تعتبر داليا أن مكانها هو إلى جانب السائق وأنه من حقها؟

بتنهيدة خافتة، حاولت سعاد التركيز على تعليقات صديقتها. وعندما غادرتا بعد ساعتين، عرفت أنها، رغم نجاحها في تجنب مرافقة سعيد، لم تستطع أن تطرده من مخيلتها.

عندما عادت سعاد إلى البيت، بحثت عن سيارة سعيد، ولم تدري هل تفرح أم تندم لتجد أنها قد ذهبت.

كانت واجهة البيت في ظلام، وتعجبت للحظات إذا كانا قد عادا أم لا، لكنها سرعان ما شاهدت نوراً في غرفة نوم داليا.

عندما دخلت، قالت المرأة الشابة: «أهذا أنت يا سيدة سعاد؟ هل قضيت يوماً جميلاً؟»

«كان يوماً جميلاً». أرغمت سعاد نفسها أن تقول بلهجة حماسية. «آسفة لأنني تأخرت، لكن الوقت مر بسرعة. هل أنت وسعيد استمتعتما بيومكما؟»

«أوه نعم. لقد ذهبنا إلى الجبل وتناولنا الشاي».

«هذا جميل». قالت سعاد بجفاء.

ويوم الأحد التالي، كانت داليا تعمل طول النهار، وفي الصباح اتصل سعيد ليقترح مشواراً. أخذت على حين غرة، تمتمت سعاد: «أنا آسفة. داليا تعمل اليوم، وأنا عندي ترتيبات أخرى».

«أوه حسناً، لا بأس»، أجاب وأقفل الخط.

وهكذا فإن قولها عن ترتيبات أخرى لم يذهب هباء، فقد اتصلت بحماتها فدعتها لتناول العشاء في الخارج.

فرحت والدة فارس وقالت لها: «تعالي وتناولي العشاء معنا، فنحن لم نراك منذ زمن».

خلال بعد الظهر، ناقشتا موضوع ليلى. قالت سعاد: «إنني مسرورة لأنك أرسلت ماجدة إلينا لإلقاء نظرة عليها. ماجدة طيبة مع الصغار. لقد قامت بعمل أفضل مني كام».

«هراء»، قالت حماتها. «في الحقيقة أن لديها الكثير من الأطفال، وزوجها يساعدها في ذلك، لكن لا أحد يستطيع أن يجد غلطة في طريقة تربيتك لليلى».

«إنها ما زالت تكتب بانتظام لسمير. يبدو أنها لم تستطع نسيانه».

«ما زال هناك وقت. إنني أراهن بأنها على ما يرام الآن، وستكون متشوقة لإنهاء تدريبها قبل أن تبدأ الحديث ثانية عن موضوع زواجها».

خلال العشاء قالت حماتها: «من المؤسف أنك لم تفكري بإحضار سعيد معك. إننا لم نره منذ فترة».

قالت سعاد بسرعة: «من المحتمل أن لديه خططاً

أخرى. إنه مشغول جداً. إن عمله يبقيه في حركة دائمة، وطبعاً فإن داليا تعمل اليوم».

وفي وقت متأخر، عندما كانتا جالستين قرب الموقد، كانت هناك طرقة على الباب، وانزعجت سعاد لدى سماعها صوت سعيد وهو يحيّي عمته. بدا مندهشاً عند رؤية سعاد، وبعد أن تحدثا لبضع دقائق، قال خاله: «لقد كنا نقول لسعاد أنه من المؤسف أنها لم تفكر بالإتصال بك ومعرفة إذا كنت ستحضر إلى هنا».

نظر سعيد إليها نظرة غريبة وقال ببرود: «لم تكن عندي فكرة بأنك ستأتين إلى هنا. لقد شعرت بدافع يدفعني إلى هنا، وهأنذا».

«ونحن مسرورون لرؤيتك»، قالوا له بلطف.

شعرت سعاد بالخزي والإذلال. هل سيعتقد بأنها قررت ذلك في آخر لحظة، ليكون لديه عذر في عدم الخروج معه؟

شعرت بالإنزعاج والغضب من نفسها، وبصورة غير منطقية، منه. لماذا حضر ليعكر الهدوء الذي كانت تستمتع به؟ تحدث الآخرون بسهولة، دون أن يدركوا التوتر بين الضيفين.

وعندما سألا سعيد إذا كان ينوي البقاء في المدينة بصورة دائمة، انتظرت سعاد أن يذكر لهما خطته حول

القيام بجولة في مقطورة، لكن لدهشتها قال: «حسنا، سأبقى هناك إلى ما بعد فصل الشتاء، على أي حال، لكن خططي بعد ذلك هي غير مؤكدة. إنني قد أعود إلى بلدي».

بصعوبة، سيطرت سعاد على شهقة خفيفة. هذه هي أول مرة يذكر أمامها موضوع العودة. هل ستذهب داليا معه؟ تعجبت سعاد.

ثم، وبصورة مفاجئة، وأكيدة، عرفت سعاد أن ذهابه سيترك فراغاً في حياتها. لقد اعتدت على وجوده، حاولت أن تقول لنفسها بحزم. إنني سأفتقده مثلما افتقدت ليلى منذ ذهابها. لكنها عرفت بأنها تخدع نفسها.

والدا فارس أقنعاهما للبقاء لتناول الشاي، وعندما كانا على وشك الذهاب، في وقت متأخر من الليل، قال سعيد: «من المؤسف أن مع كل واحد منا سيارة. إن المسافة طويلة بالنسبة لك، يا سعاد». توقف وعرفت سعاد بأنه يعطيها الفرصة لتترك سيارتها وتأخذها في يوم آخر، لكنها بقيت صامتة بعناد.

إنه يعلم أنها نادراً ما تستخدم سيارتها خلال الأسبوع، ولذا فإنها لن تفتقدها، لكنه لم يقدم اقتراحاً آخر. فقط رماها بنظرة منحرفة وقال: «إذهبي أمامي. سأتبعك لأرى أنك ستصلين إلى بيتك سالمة».

تمتمت بأدب: «أشكرك»، وصعدت إلى سيارتها، ولوحت مودعة لحمويها، وأقلعت بالسيارة.

كانت ليلة صافية، باردة ومليئة بالنجوم، وكان القمر بدراً، والعشب هشاً بسبب الجليد. كانت سعاد تكره أن تقود السيارة وهي تضع القفازات، وسرعان ما تجمدت يداها. كانت سيارة سعيد من طراز حديث، ومريحة أكثر، ففكرت بالإسترخاء لو جلست إلى جانبه في السيارة الدافئة.

لقد كانت حمقاء عندما رفضت اقتراحه، لكنها عرفت الآن، عندما فات الأوان، وأدركت أنها تكن له عاطفة قوية، لكنها لم تجرؤ أن تدعه يكشف سرها.

إنها وضعته في طريق داليا، ببرودتها وغطرستها. لقد كان من الطبيعي أن يقع في هوى المرأة الأصغر، والأكثر جاذبية.

خلال الأشهر الستة الماضية، كان زائراً دائماً للبيت، وعندما بدأ القلب يميل لرؤيته، حاولت أن تقنع نفسها بأن ذلك كان لأنه يذكرها بفارس، لكنها عرفت الآن بأن ذلك لم يكن هو السبب.

في البداية، ربما، جذبها لشبهه الجسدي للمرحوم زوجها، لكن ذلك كان فقط شبهاً عائلياً سطحياً، وقد وقعت في هواه كسعيد، وليس كابن عم فارس.

استطاعت أن ترى أضواء سيارته في المرآة الخلفية، وقد منحتها شعوراً دافئاً بالأمان بأنه كان يتبعها. تمنت لو يحدث عطل في سيارتها، لكي تتوقف وتكمل الرحلة معه.

في ذهنها، رأت الرجل الذي على عجلة القيادة خلفها. كان سعيد سائقاً ماهراً، وقد تصورته يجلس باسترخاء وثقة، وعيناه يقظتان. هل هو بحاجة إلى رفيقة أم أن عقله مشغول بداليا؟

عندما استدارت نحو منعطفها، كان سعيد قريباً خلفها، وقد رغبت في إيقاف سيارتها والتحدث إليه، وشكره على اللحاق بها. إنها ستكون لفتة طيبة إن هي فعلت ذلك، لكنها كانت خائفة من ردة فعلها. لو أنه تحدث إليها بلطف في حالتها العاطفية الحالية، فإنها قد ترمي نفسها بين ذراعيه وتبكي، وهكذا فقط أطلب من السيارة، لوحت له، وأدخلت سيارتها إلى المرآب. وعندما خرجت من السيارة، رأت الضوء الخلفي لسيارته يختفي في البعيد.

امتدت دورة سمير من ستة أشهر إلى تسعة، ولم يعد قبل شهر آب. حضرت ليلى من الشمال لترحب به، لكن لم يكن هناك أي حديث عن الخطوبة، وعادت سعيدة لتواصل تدريبها.

خلال الأيام الثلاثة التي أمضتها في البيت، اكتشفت سعاد ليلى جديدة. كانت أكثر لطفاً، وأقل توتراً وتجهماً،

ورقيقة كالطفلة.

وجود شخص ثالث في البيت ربما ساعدهما على كسر جمود اللقاء من جديد. كانت داليا مهتمة لمعرفة ما يجري في المستشفى، ووجدت سعاد نفسها تنضم إلى مناقشاتهما حول أيامها في ذلك المستشفى. عرفت، لأول مرة منذ سنوات، أن ليلى كانت تصغي لها بدون ملل، وبدت مهتمة بوجهة نظر والدتها.

الخبرة في التمريض قد غيرت الفتاة. لقد كبرت. في المساء قبل عودتها، في مجرى الحديث صرحت بإيجابية: «سأنهي التدريب، ولن أتركه في منتصف الطريق مثلما فعلت، يا ماما. إنني أنوي البقاء إلى النهاية، والحصول على الشهادة».

«هذا خير لك، يا ليلى» قالت داليا. «إنني دائماً أشجع فتياتي على الإنتهاء إذا استطعن. إن التخرج هام. عندما تحصلين على شهادتك، يمكنك الحصول على وظيفة ممرضة في أي مكان من العالم، وحتى لو تركت وتزوجت، يمكنك إتمام التدريب. إن التمريض مستقبل زاهر».

إن بعض الفتيات يخططن لرحلة إلى ما وراء البحار عندما ينتهين»، أعلمتهما ليلى ثم أضافت: «صديقتي منى وأنا نفكر في القيام بجولة حول العالم».

«قد أذهب أنا نفسي في جولة حول العالم السنة القادمة»، قالت داليا، ثم غيرت الموضوع بسرعة كيلا تقول المزيد. خفق قلب سعاد.

كان سعيد قد أمضى الأمسية الماضية معهن، وعندما خرجت ليلى إلى المطبخ لتساعد والدتها في اعداد العشاء، كانت قد قالت: «إنه لطيف جداً، سعيد، أليس كذلك؟ أتمنى لو يبقى هنا ولا يعود إلى بيته. لقد أحبه سمير، أيضاً»، أضافت كأنها تمتدحه.

بعد فترة، ظلت والدتها خلالها صامتة، منهمكة في صب القهوة في الكوب، قالت: «هل تشاهدينه كثيراً الآن حيث أنه يعيش هنا بصورة دائمة؟»

غير مدركة لصوتها الجاف، قالت سعاد باختصار: «نعم، هو وداليا صديقان».

نظرت ليلى إليها، وحملت الصينية إلى الغرفة الأخرى، تاركة سعاد لتلحق بها والإبتسامة على وجهها.

كانت داليا، وسمير، وسعيد يجلسون بكل ارتياح حول الموقد، لكن سمير قفز وقدم الطاولة لليلى لتضع الصينية عليها، وسعيد ناول الأكواب عندما ملأتها سعاد.

وفيما كانت تراقب ليلى وسمير معاً، قررت سعاد أن علاقتهما قد استقرت إلى نوع من الصداقة الدافئة. التوتر والتسرع قد ذهبا، وفجأة عرفت سعاد أنهما لم يعودا يكنان

عاطفة جياشة تجاه بعضهما.

إنهما من المحتمل أن يظلا أصدقاء. لقد كان هو عاطفتها الأولى، تماماً مثلما كانت عاطفتها تجاه رشيد، الذي كان عاطفتها الأولى.

أرادت ليلى أن تنهي تدريبها في المستشفى، وعندما تتزوج داليا من سعيد ويذهبان، ستكون سعاد وحيدة كما لم تكن من قبل. عندما توفي فارس، كانت تعيسة يائسة، لكنها أعادت بناء حياتها حول ابنتها، وقدمت الحب والعناية في التخطيط لمستقبل الطفلة. لكن الآن أصبحت ليلى مستقلة، وعندما يخرج سعيد من حياتها، فإنها ستعود من جديد لمواجهة عملية ترميم عالمها.

كان الشتاء بارداً، رطباً، وعاصفاً، لكن الربيع حلَ بأيامه الصافية، الدافئة مما أغرى سعاد على الخروج إلى الحديقة. زرعت بذور وأبصال الأزهار وهي سعيدة لقيامها بهذا العمل.

لقد قررت أن تبقى محصنة ضد الإتصال بأي شخص قد يهدم الحائط الذي بنته بين نفسها وأي شخص من الجنس الآخر، وبعملها هذا كانت قد حطمت فرصتها في السعادة.

من جهة أخرى، فإن داليا لم تخف إعجابها بجاذبية سعيد، وقد رحبت بكل مناسبة للخروج معه.

لو أستطيع العودة إلى البداية، قالت سعاد. آه لو تسنح لي الفرصة من جديد لأشعر بالدفء، بدلاً من البقاء باردة هكذا.

خلال الأسابيع القليلة الماضية، كان سعيد خارج المدينة في مهمة، وهكذا لم تشاهداه. عرفت سعاد أن تعاقده مع الجريدة يمضي بسرعة، لكنها خافت أن تسأله عن خططه للمستقبل. بدون شك، كانت داليا موضع ثقته، لكن لسبب ما لم يرد ذكره في الحديث بين المرأتين. أحياناً تعجبت سعاد إذا كانت المرأة الشابة قد أحست بغيرتها.

عند العشاء يوم الأحد، قالت داليا: «لن أكون في البيت لتناول الشاي الليلة. من المحتمل أن أتأخر قليلاً».

«حسناً»، قالت سعاد بمرح. «إنه يوم جميل؛ ومن المحتمل أن أذهب بالسيارة إلى الريف، بنفسي، لاحقاً». لكنها كانت طول الوقت تشتبه بأن داليا كانت ذاهبة لقضاء اليوم مع سعيد، وقد أغفلت ذكر عودته لسعاد كيلا تشعر بالألم لتركها لوحدها.

بعد ذهاب المرأة الأخرى، خطرت لسعاد فكرة الذهاب لرؤية والدي فارس، لكنها قررت أنها قد تنزعج عند قيامها بهذا المجهود.

لبست ثوباً قطنياً وحاولت العمل في الحديقة. كانت أزهار الربيع جميلة تفوح بعطرها بين الحين والآخر.

شربت الشاي لوحدها، وكتاب على الطاولة إلى جانبها، ثم شعرت بالإنزعاج من بقائها ساكنة، فنزلت إلى الحديقة وقطفت بعض الأزهار ووضعتها على طاولة الصالون.

قطفت مجموعة من أزهار النرجس وأضافتها إلى الأزهار في المزهرية. بعد ذلك قطفت بعض الورود بأغصانها وحملتها إلى داخل البيت. وفيما كانت تستدير عند زاوية البيت، أوشكت أن تصطدم بسعيد.

«أهلاً يا سعاد. لقد اتصلت فلم أتلق جواباً، فاعتقدت أنك يجب أن تكوني في الحديقة»، قال محيياً.

اضطربت لهذا اللقاء غير المنتظر بالرجل الذي كان يحتل أفكارها، وقفت في الممر وردت التحية بارتباك.

«تبدين كأنك في السادسة عشرة»، أخبرها سعيد وهو يتأمل قوامها.

«أوه!» نظرت إلى صندلها وتمتمت: «إنني لم أرتد ثياباً لاستقبال الزائرين. لم أكن أتوقع حضور أحد. لقد كنت أقوم بالتعشيب طوال فترة بعد الظهر».

«تبدين كاملة. إنك رحيق الربيع»، قال مؤكداً.

تبعها إلى الصالون، ووضعت الورود مع الأزهار.

«أدخل ريثما أضع الماء عليها»، قالت وقد أخذ قلبها يخفق.

قبل أن تحتج حمل الإناء وأسرع إلى المطبخ ليملأها بالماء وهو يقول: «استمري في ترتيب الأزهار وأنا سأراقبك. إنني أعجب دائماً بديكور الأزهار».

ارتعشت أصابعها وهي ترتب الأزهار. «هل استمتعت برحلتك؟» سألته بأدب. «متى عدت؟»

«وصلت يوم الجمعة. لقد رأيت ليلى في الشمال. إنها في ريعان الشباب. إنها منكبة على عملها الآن».

بدا الإرتياح في عيني الأم عندما قالت: «نعم، إنني فرحة، لقد كنت خائفة عندما يعود سمير، أن تتخلى عن مستقبلها وتتزوجه».

«مسكينة، يا سعاد. لماذا أنت قلقة هكذا؟» قال لها بصوت ناعم.

قالت سعاد مدافعة: «إنها كل ما عندي. إنني أكره أن أراها تدمر حياتها».

خيم صمت طويل حتى انتهت من ترتيب الزهور، ثم جمعت بقايا الأغصان والأوراق ولفتها في جريدة.

«إنها تبدو جميلة»، قال وقد أخذ منها الجريدة. «سأضعها في صندوق النفايات».

عندما عاد، كانت قد غسلت يديها، ووقفت عند النافذة تراقب غروب الشمس. فجأة أدركت أنه، بالطبع، قد جاء

لرؤية داليا، وقد يستغرب من عدم وجودها. وعندما دخل إلى الغرفة، قالت معتذرة: «أنا آسفة، لقد خرجت داليا. إنها ستعود إلى البيت متأخرة. إنها لم تعلم برجوعك».

«حسناً»، أجابها بسهولة، ثم وهي ما زالت واقفة عند النافذة، أضاف: «وماذا بشأنك؟ ألا تخرجين؟»

«أنا؟ لا!»

«حسناً. إذن سأظل برفقتك إذا أمكن».

«بالطبع. إجلس». أنزلت المساند من على مقعد النافذة وهي تتحدث، وهو أدار الكرسي بحيث يواجهها عند جلوسه.

وجدت وجوده مزعجاً، فكان من الصعب عليها أن تبقي نفسها تتحدث عن الطقس، فقط لكسر الصمت الذي خيم بينهما. لو كان هناك شخص ثالث لما كانت بهذه العصبية. كانت بحاجة للبرودة، لكن قلبها ظل ينبض عالياً بحيث خافت أن يسمعه.

لقد بدا هادئاً ومسترخياً وهو يتكيء بظهره على الكرسي كأنه من أهل البيت. فجأة عرفت سعاد لماذا هذا البيت لا يبدو كبيت لها. إن هذا البيت ينقصه الوجود المريح لرجل، يكون معطفه خلف الباب، وشبشبه عند المدفأة، وغليونه على الرف.

وهكذا كانت غارقة في أحلامها بحيث أرعبها صوته.

«لقد كنت أفتش عن مقطورة في نهاية الأسبوع، يا سعاد».

«تفتش عن مقطورة؟» رددت الكلمات بغباء.

«نعم. ألا تذكرين خطتي لشراء مقطورة والتجول بها عبر البلاد الجميلة في أوقات فراغي؟»

«لكنني أعتقد بأنك قد تخليت عن هذه الفكرة»، تمتمت. «لقد قلت بأنك ستعود إلى بيتك القديم في ذلك اليوم الذي كنا فيه عند عمتك».

«لقد عالجت تلك الفكرة»، قال معترفاً، «لكنها نوعاً ما لا تروق لي. لقد عشقت هذه البلاد منذ أن جئت إليها».

هل اكتشفت داليا أنها لا تطيق مغادرة بلدها، وأقنعته بالبقاء هنا؟

لقد عرفت أنها لو كانت هي التي يكن لها عاطفة قوية، لذهبت معه إلى أقاصي المعمورة.

كان يراقبها بابتسامة غامضة على وجهه، وهكذا أرغمت لهجة أدبية باردة في صوتها، وقالت: «وهل وجدت المقطورة التي تفي بحاجتك؟»

«لقد وجدت مقطورة أعتبرها مثالية. إنها خفيفة للنقل فوق هذه الطرق المنحدرة، وواسعة كفاية بحيث تصلح بيتاً مريحاً لاثنين لعدة أشهر، ولحين أن نمل من العيش حياة الغجر».

استعماله العادي لكلمة «نحن» خرقت قلبها. آه لو أن ضمير الجمع يعني فقط هي وسعيد.

هبط الغسق وهما يتحدثان، وكان داخل الغرفة مظلماً. نظرت عبر النافذة، لكن بدلاً من أضواء الشارع المنعكسة، استطاعت أن ترى موقع المخيم المنعزل في شجيرة إلى جانب البحيرة، والجبال الشاهقة التي ترتفع بانحدار خلفها والبدر الذهبي الكامل يبدو واضحاً في السماء المرصعة بالنجوم.

كانت غارقة في سحر الحلم بحيث أنها ارتعدت عندما شعرت بذراعه على كتفها، واكتشفت أنه نهض عن كرسيه وكان يقف إلى جانبها.

نظرت إليه، فقال لها بصوت أجش: «يا سعاد، هل أجرؤ على الطلب منك بأن تشاركيني في مقطورتي؟»

شاحبة ومرتعشة، تمتمت سعاد: «أنا!»

«ومن غيرك؟»

«لكن ماذا عن داليا؟»

«ماذا عنها؟ أوه، يا سعاد، يا سعاد، بكل تأكيد أنت لم تفكري بأنني سأكون قانعاً بامرأة ثانية أفضل منك؟ لقد كنت أنت دائماً. منذ اللحظة الأولى رأيت هذا الحلم. لقد كنت أنت دائماً هي التي أراها إلى جانبي. رغم أنك»، قهقه، «لم تظهري لي أي بارقة أمل».

كانت صامتة، مذهولة بمغناطيسية منظور السعادة التي فتحتها كلماته أمامها. وضع أصابعه تحت ذقنها كي يستطيع أن ينظر في عينيها. وفي اللحظة التالية ضمها إليه.

بعد فترة قال: «آه فقط لو أنك لمحت لي قبل ذلك أنك تشعرين نحوي بنفس الشعور، لقد كنت أتعذب، وافكر بأنك لا تهتمين. في الحقيقة، كنت على وشك أن أحزم أمتعتي وأعود إلى بلدي لو وجدت أنني لن ألقى منك سوى مودة القرابة الباردة».

«نعم، لقد قلت بأنك ستعود، وقد شعرت بأن قلبي سيتحطم».

«لقد سلكت طريقة مضحكة. لقد كان ذلك يوم رفضت الخروج معي بالسيارة، وبالصدفة، اكتشفت مخبأك عند حمويك. وعندئذٍ، لما حان وقت الخروج، أخذت أفكر: لو أنها تترك سيارتها هناك وتعود معي، فإنني قد أستجمع شجاعتي وأطلب منها أن تتزوجني! لكن لا جدوى. لقد صعدت إلى سيارتك وذهبت، ومع أنني لحقت بك طول الطريق إلى البيت، فقد لوحت لي بيدك فقط عندما وصلنا إلى البوابة، وكان ما كان».

قالت سعاد نادمة: «آه لو تدري كم كنت نادمة على عنادي. كنت طول الطريق أرقب أضواءك تتبعني وكنت اقول كم كنت حمقاء عندما أضعت فرصة الركوب معك».

التقت عيناه بعينيها. «أخبريني، يا سعاد، لماذا أصريت على رفضي؟»

لاهثة، حاولت أن تشرح. «كما ترى، لم أكن أنوي أن أشعر بعاطفة تجاه أحد مرة ثانية. عندما توفي فارس، ألقيت بكل شيء من وراء ظهري. ونظراً لأنني لا أستطيع أن أكون زوجة بعد، فقد قررت أن أضع كل جهودي لأكون أماً. ثم جئت أنت وعكّرت كل أفكاري، لكن مع مرور الزمن كنت أمينة لأعترف بالحقيقة، لكن بعد فوات الأوان. لقد اعتقدت أنك تكن عاطفة جياشة نحو داليا».

«إنني لم أشعر بأية عاطفة تجاه داليا، بالرغم من كل جهودك لإفساح المجال أمامنا لنكون معاً»، قال متهماً.

«لم يكن الأمر أنني أردت أن أدفعكما لتكونا معاً، لكنني كنت أغار بشكل جنوني وأحاول أن أثبت لنفسي العكس. وعندئذٍ»، أضافت بتنهيدة، «هي أصغر مني بكثير وأكثر جاذبية مني».

وضع أصابعه على شفتيها وهز رأسه بإنكار عاجل: «أصغر، نعم، لكن أكثر جاذبية؟ أوه لا، يا سعاد! لم يخفق قلبي خفقة واحدة نحو داليا، لكن عندما تكونين قريبة، كان قلب ابن الأربعين يخفق كقلب شاب يقع أسير العاطفة لأول مرة».

قالت بتوتر نوعاً ما: «وعندما اعتقدت أنك تكن عاطفة

قوية نحو داليا، عانيت كل تحطم قلب، وغيرة، ويأس فتاة مراهقة».

«إذن أنت تكنين لي عاطفة ملتهبة؟»

للإجابة، طوقت رقبته بذراعيها وهمست عن رغبة: «أوه، يا سعيد، يا أعز مخلوق، إنني أكن لك عاطفة رهيبة».

«ليست رهيبة، يا عزيزتي، بل مدهشة، وعظيمة»، قال مصححاً بنعومة، وهو يدنيها من قلبه.

انتهت

العبرة من القصة

نستخلص من هذه القصة العبر التالية:

١ - يجب عدم استعمال الضغط على الفتاة، بل معاملتها باللين تارة، وبالشدة تارة أخرى، لأن شدة الضغط وحدها كثيراً ما تولد الإنفجار.

٢ - عدم ترك الحبل على غاربه للفتاة لتنطلق على هواها، لكيلا تقع في هاوية الخطيئة، وعندها يصبح لات ساعة مندم.

٣ - ضرورة التقيد بالقيم والأخلاق النبيلة، والإيمان بقضاء الله وقدره، والصبر على المصائب والشدائد، والإتعاظ بقوله تعالى: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا». صدق الله العظيم.